احميد المرابط

أنا و الموت

قصة قصيرة

دار الحكمة

جميع الحقوق محفوظة

A.m.alzaydani@gmail.com

الطبعة الثانية 2020

الترقيم الدولى : 978 ـ 9959 ـ 818 ـ 99 ـ 7

رقم الإيداع : 485 / 2020

أنا والموت

أنـا والمـوت

قصة قصيرة

احميد المرابط

أحِبَتي القُرَّاء

إنّ هَذِهِ الأَسْـطُر هِي مُحـاولتي الأولى التي لَا أَرَى فيها كَمَالًا، إنَما سَـأَلْتُ الله أنْ يُوفِقَني فِيهـا، فَـإنْ وُفّقْـت، فَذَلِكَ مَحْضُ فَضْلٍ مِـنَ الله وَحْـده، وَإنْ أَخْفَقْت فَحَسْبي أَنَني حَاوَلْـت، وَسَأُعيدُ الكَرَّة مَرَّةً أُخْـرى، فَطَريـقُ النَجَـاح مُلِئَـتْ إخْفَاقًـا وَعَـثَرَات، وَالمُوَفَّقُ مَنْ اجْتَازَ ذَلِك.

الكاتب

الإهداء

إلى من عَلَمَتْني كيف أُمسك القلم، وأكتب الحروف حرفًا حرفًا، مُعلمتي في مرحلة الروضة بمنطقة زلة الأستاذة (فاطمة الدلدول) رحمها الله تعالى.

إلى من عَلَمَتْني كيف أربطُ الحروف بعضها ببعض، وكيف أُعَبِّرْ، وكيف تكون الكتابة، مُعلمتي بمراحل دراستي الابتدائية من منطقة غات الأستاذة (زهرة خود جبريل) رحمها الله تعالى.

إلى عائلتي الكبيرة، العزيز والعِصامي والصديق (أبي)، الحنونة والعطوفة التي وَسِعَ قلبها الجميع (أمي)، وإلى سَنَدي في هذه الحياة (إخواني) جميعًا.

إلى مملكتي الصغيرة، إلى رفيقة الدرب والخليلة والوفيّة (زوجتي)، وإلى (زينة الحياة الدُنيا) ومُهْجَة النفس (أبنائي).

إليهم جميعًا أهدي هذا الكتاب المتواضع.

بداية الرحلة

البداية:

في رحلةٍ كُنا نَظُنها عادية كسائر الرحلات تبدأ من نقطة وتنتهي بأخرى كما جرتِ العادة في أي سفرٍ أو تِرحال، ولكن في رحلتنا هذه، اختلف الأمر كثيرًا.

فقد بدأت رحلتنا من منطقة الفقهاء في الوسط الليبي إلى مدينة سبها كُبرى مُدن الجنوب الغربي في ليبيا، حيثُ كُنْتُ ومن معي على متن 4 مركبات سَلَكْنَا الطريق المُعَبَّد لِفَترَةٍ وجيزة، ومن ثم سلكنا طريقًا صحراويًا آخر حتى نختصر المسافة، فكُل كيلومتر نوفره يعني لِزامًا توفيرًا في الوقود الذي نعاني شُحه ونُدرته.

قطعنا مسافة 40 كيلومتر تقريبًا في ذلك الطريق الوَعِر حيثُ الحجارة كرؤوس الحِراب تُحاول جاهدةً أن توقفنا، وتحاول اصطياد عجلاتِ مركباتنا، ونحن بدورنا نُحاول ألا يكون لِتلك الحجارة ما تُريد.

وأما عن سُرعتنا، فقد كانت على مهلٍ وعَجَل، على مهلٍ حتى

لا تُعْطب العجلات أو تتأذى المركبات، وعجلٍ حتى نصل مكاننا سريعًا ونُنهي تِلك المشقة والعناء.

وبين المسير عجل ومهل، بَلَغْنَا منطقة صحراوية يُطلق عليها السُكان المحليون اسم (الغاني)، وهي منطقةٌ محدودة المداخل والمخارج، حيثُ المسارات والمسالك لا يمكن تجاوزها يمينًا أو شمالًا، لصعوبتها ووعورتها، والسيرُ فيها لا يكون إلا على ما رَسَمَتْهُ عجلات من ساروا قبلنا على ذات الطريق.

وبينما نحن كذلك تراءَتْ لنا بعض المركبات التي بدت تتضح معالمها وتفاصيلها شيئًا فشيئًا، حتى اكتملت تِلك المعالم وجزمنا بأنها مركبات صحراوية من ذَوَاتِ الدَفْع الرُباعي، نُصِبتْ عليهن أسلحة متوسطة، ويَعْتَليهنّ عددٌ مِن المسلحين.

وعلى الفور تَلى ذلك المَشْهَد شعورٌ بالارتباك، ليُصبح خوفًا ممزوجًا بعددٍ من الأسئلة؟؟؟

من هؤلاء؟

وماذا يُريدون؟

ولماذا اختاروا هذا المكان بالذات؟

هل هُم عصابات التهريب؟

أم هل هُم؟ وهل هُم؟ وهل هُم؟؟؟

وبعد كَمٍّ التساؤلات الهائل صِرْنا نَدْنو إلى ذلك الاستيقاف، واتضَحَتْ لنا تدريجيًا مَلَامحُ من كانوا فيه، كما لاحظنا أيضًا انتشارًا لبعضِ الأشخاص على أرجلهم، يَمْتَشِقون الأسلحة، وتختلفُ ملابسهم كما هيئاتهم، فمنهم من يرتدي الملابس العسكرية المُتسخة والبالِيَة، ومنهم من يرتدي الملابس الرياضية، ومنهم من يرتدي جَلَابيب مُهْتَرِئَة، بل ومنهم من طَوَّقَتْ التَمائِمُ ودَلَائِل الشعوذة عُنقه، لِنَجْزِمَ على الفَورْ بأننا قد وقَعْنا في كَمينٍ لإحْدى عِصاباتِ الخطف والحَرَابة التي تَمْتَهِن الخَطف وقَطْع الطريق في تِلك المنطقة.

وقُبَيْل وصولنا إليهم بأمتارٍ قليلة تَوَقَفَتْ مرْكَبَتان من مركباتنا، وانْطَلَقَتْ المركبتان الأخْريَان بأقصى سُرْعَتَيْهِمَا، الأمرُ الذي أدّى إلى انقلاب إحْدَى المركبات، وواصَلَتْ الأخرى الهروب في سرعةٍ عالية، كالطَريدَة التي فَرَّت من ذئابٍ مُفْتَرِسَة،

هي تحاول الفِرار والنَجاة، وهُم يحاولون اللحَاقَ والظَفَر بها، تَطيرُ في الهواءِ تارةً وتصطدمُ بالأرضِ تارةً أخْرى، هُم أصَرُّوا على الإمْسَاك، وهي أصَرتْ على الإفلاتْ.

ورُغم محاولتهم إيقافها بِشَتَّى الطُرُقْ، كَتَبَ الله النَجاة لسائق تِلك المَرْكَبة، وذلك بَعْد أنْ فَشلوا في إيقافه والإمساك بِه، بَلْ وعجزوا عَنِ اللحاق بِهِ حتى، وأمَّا نَحْن فَقَدْ أدْرَكْنَا بأنَّ رِحلتنَا انْتَهت هَا هُنا، لِنَبْدَأْ رِحْلة جَديدة، ولَكنها رحْلة مِن نَوعٍ آخر...

***

مرحلة الأسر

تَوَقفت مركباتُنا تمامًا عن الحَرَكَة، وانْقَضَّ عَلَيْنَا أولَئِكَ المُجرمون كالضِبَاع المُفْتَرِسَة الجَائِعَة، وقَدْ مَلَأَ عِواؤهُم الأرْجَاء، لَا يَنْقُصُهُم إلا أنْ يَنْهَشوا لُحُومنا أو يَشْرَبوا مِن دِمائنا.

وعلى الفَوْر بدأوا بإشهار أسْلَحَتِهِم المُتَوسِطة والخفيفة عَلَيْنا، وأمَرونا بالنزول من مَرْكَبَاتِنَا، وَبِمُجَرد النَظَرِ في أَعْيُنِهم هُيئ لَنَا بأنها تُخْرِجُ شَرَرًا لا يَدُل إلا عَلَى الإجْرَام والكَرَاهية وكُل مَا هو سيء.

وبكَلِمَاتِهِم الغَيْر مَفْهومة في كثيرٍ مِن الأحيانْ - التي كانتْ دَليلاً على أنهُم مُجرمون مِن خَارِج البِلاد - على الفَوْر أمَرونا بالنُزول من مركباتنا، وأعادوا تِكرار تِلك الأوامر لنا بالنزول والانبطاح أرضًا.

وعلى الرُغم من امتلاكنا لقطعٍ مِن السِلاح الشخصي الخَفيف، إلا أَنَنا فَضَّلْنَا عَدَمَ استِخْدامه، لأنَّ مواجهتهم تعني الموت الحَتْمي الذي لَمْ نَكُن نَخْشاه بَقَدَرِ خِشْيَتنا على مَنْ مَعَنا

مِن عائلات، إضافةً إلى ميزانِ القوى الذي لمْ يَكُن مُتكافئ بيننا، فما نحمله من طلقات معدودة لن تكفي صمودنا ومقاومتنا لأولئك المُجرمين حتى لدقائق، لذلك آثَرْنا النزول وعدم المواجهة حِفاظًا على الدماء، وصونًا للأعراض.

وبعد النزول دخلنا في مرحلةٍ من الصدمة والحيرة، صدمة من تسارعِ الأحداثِ وتطورها بشكلٍ دراماتيكي سيء، وحيرةٍ إلى ما سيؤول إليهِ أمرُنا، وكيف سينتهي، وهل سينتهي كُل ذلك على خَيْر!

وبَعْد ترجُّلنا من مَرْكباتنا، ووسط جَلَبَة وصياح تِلك الذِئَاب، وهُم يأمرونَنا بالبُروك والانبطاح، وَرَفْعِ الأيْدي فَوْق الرُؤوس، ومُجَدَدًا قُمنا بذلك حتى لا يتعرضوا لِمَنْ معنا من نساء فقد كانت سلامتهم أكبر همنا.

ودون أي مقدمات بدأوا بالاعتداء علينا واحدًا تِلو الآخر، (سبًا وشتمًا) بأقذعِ الألفَاظِ وأقبحها، والتي لم نجد صعوبة في فهمها رُغم اختلاف اللغات، (وضربًا) بالأيدي والأرجل وبأعقابِ البنادق، وأما عن مواضع الضَرب فلا تسأل عليها،

فهؤلاء على ما يبدوا أن مُؤْتاهم من الغاب، عُذرًا....

حتى لا أُهين الغاب وساكنيه، ف للغاب قوانين وَرَوَادِع، وأما هؤلاء فلا رادِعَ لَهُم، فَمِنَ الوهلة الأولى عَلِمْتُ بأننا سَنُعاني ونُعَاني الكثير ولا شيء لنا إلا الدُعاء بأن يخفف الله عنا.

وبعد زَوْبَعَةِ الشَتْم والضَرب تِلك، بَدَأَتْ مرحلة التقييد والرمي في أعقابِ المركبات، تمامًا كما تُرْمى الدواب والحيوانات الميتة، وقد شَدّو وثاقنا جيدًا بِحِبالٍ غليظة خَشِنَة، كغِلظَةِ قلوبهم وقَسْوَتِها، فَرُبِطَتْ أَيْدينا، ورُبِطَتْ أَرْجُلنا، وشُدَّت الأيْدي إلى الأرْجل مِنْ خَلْفِ ظهورِنا خِشْية أنْ نَفِّرَّ مِنهم.

ومن إحكامهم لِوَثاقِنا، عَلِمْنا جَيدًا أَنَّهُم يريدوننا جَميعًا، فكُل واحِدٍ مِنّا بالنسبة لَهُم يُساوي حَفْنَة مِنَ المَال يُبْتَزُ بهِ أهلنا، فهؤلاء المجرمين امتهنوا قطع الطريق والخطف والحرابة، وجعلوها مصدرًا من مصادر استرزاقهم ودخلهم، وتم أسر كل من:

(أنا) محمد ابراهيم زيدان.

اعجيلي زيدان.

عبد الحكيم يحي.

احمد يحي.

اسماعيل ساسي.

قُيّدْنَا جميعاً، وعُصبت عينيَّ بلفافة سوداء تمامًا كسَوَاد أفعالهم، وحرصوا على أنْ تُعْصَب أعْيُننا جيدًا، حتى لا تكون شاهدةً على مسالكِهِمْ ودروبهم الظَلْماء، وأعادوا التأكُد من وثاقِنا ظنًا منهم أننا سَنفلتُ أو نَهْرُبَ في تِلك الصحراء الشاسعة، وما علموا أننا احْتَسَبْنا أنفسنا وأعراضنا لله، فلا نجاة ولا سلامة إلا بأمره، وأن الله لو كتب لنا النجاة، سننجو رُغمًا عن أنوفهم.

وبعد ما أنهو كل ذلك، وتفقدوا كل شيء، تحركت المركبات، لتستمر رحلة الموت التي بدأت للتو.

***

مرحلة الاقتياد

وباقتيادِنا دَخَلَتْ رحلتنا فَصْلًا آخر مِن فصولها المُميتة، رحلةٌ كُل لحظة فيها تعني الموت، تعني الرُعب، تعني القهر، تعني سلبًا للحرية، بل سلبًا لبشريتنا وأدميتنا..

تحركت المركبات التي لم تُطفأ محركاتها أصلًا، وما أن بدأت عجلاتها بالدوران حتى اكْتَشَفْتُ بأنّ نورًا قدْ بَدأ بالتسلل إلى عَيْنيَّ عَبْر مسامات دقيقة مِن تِلك اللفافة التي عُصبت بها عينيَّ، على الرُغم مِنْ أَنَّ الخاطفين عَصَبوهما جيدًا بِما توفر لديهم من قماش، ولكن يبدوا أن الله خَصَّني دون رفاقي الأسرى بذلك النور، فَصِرْتُ أشاهد الطريق وأحاول تَحديد المعالم، وأنقلُ ما أرى إلى رفاقي، رُغم أن معالم الطريق لا تختلف كثيرًا عن بعضها البعض، فلم يتجاوز ما شاهدته في تلك الطريق الكُثْبان الرَمْلية، والدروب الصخرية، وبعض الجِبال، وكُل ذلك على امتداد الطريق.

واستمرت تلك المركبات بالسيْر لساعات وساعات دون

توقف، وفي كُل لحظةٍ تَسْتَحْضِرُ ذاكرتي أمورًا ومواقفًا تَزيدُني ألمًا وحُرقة، ولعل أهمها، هو أن إحدى النساء التي كانت ترافقنا – قبل اقتيادنا – قد أُسر اثنان من أبنائها معنا، وهم:

عبد الحكيم.

أحمد.

ولك أن تَسْرَح بخيالك وتَتَخَيّل حال تِلك الأم، وفَلَذَاتُ أكْبادِها يُساقون إلى المجهول سوقًا من أمامها، مُقَيّدي الأيْدي ومَعْصوبي الأعْيُن، فأيّ ألمٍ، وأيّ حزنٍ، وأيّ أَسَى يَنْتابُ تِلك الأم، فأكاد أجْزم بأن حُزن الدُنيا كلها قد اجتمع في قلب تِلك الأم، بل ودموع الدنيا أيضًا قد اجتمعت في عيني تِلك الأم، وهي تُردد:

(حبسي الله ونعم الوكيل)

(حبسي الله ونعم الوكيل)

(حبسي الله ونعم الوكيل)، فيكم...

تِلك الكلمات، وفي ذلك الموقف، وصدى صَوْت الأم وهي تُردد ما تقول، لا شَكَّ عِندي بأنه علَا، وارتفع، حتى بلغ عنان

السماء، ويْ كأن الجبال تُردد معها ما تقول، والأرض اهتزت لذلك، وكُنْتُ على يقينٍ حينها بأنَّ الله لنْ يَرُدُها خَائِبَةً مُنْكَسِرَة، ولو بعد حين، وسيكون الله لها حسْبًا، ومَوْلى، ووَكيل.

ومِما دار في الأذهانِ أيضًا، كيف سيكون حال تِلك النِسْوَة في عَرَضِ الصحراء؟ مَنْ لَهُن؟ مَنْ يتولاهُنَّ؟ مَنْ يَحْمهن؟ بَلْ مَنْ يُرجِعُهُنَ إلى الديار والأهل؟؟

ولكن حين استذكر مَعِيَّة الله وحفظه لعباده، يهون كُل ذلك، ويزدادُ يقيني بأن الله لن يخذُلَهُنَّ أبدًا.

وبالعودة إلى رحلتنا وتِلك المركبات التي استمرت في شقِّ طريقها في تِلك الصحراء لا يوقفها شيء، لتتواصل مُعَاناتُنا التي لَمْ نَعْلَم حينها إلى متى ستستمر؟ أو متى ستنتهي؟ ولكن ما كُنا جازمين به، أن هذه الرحلة لن تنتهي إلا بمزيد من الأسى والألم.

***

مرحلة الاستجواب

وبعد المسير ذلك اليوم كُله، من صَباحِه إلى مساءه، وعِند العاشرة تقريبًا من تِلك الليلة، توقفت المركبات التي كانت تُقِّلُنا، بعد أن رُجَّتْ عظامنا رجًا، واهْتَزَأَتْ لحومنا من شدة الاهتزاز والارتطام، ليقوموا بإنزالنا الواحد تِلو الآخر، وكما جَرَتْ العادة لَمْ يَخْلوا الأمر من الضَرب والرَكل والصفع على الوجوه، واقتادونا الواحد تِلو الآخر وأوقفونا متجانبين، وبدأوا باستجوابنا والتحقيق معنا، ولعل أهم الأسئلة التي قاموا بطرحها علينا:

من أي قبيلة أنتم؟

ما هي أعمالكم؟

ماذا تملكون من مال؟

من أين أتيتم؟

ووووو .....

هذه الأسئلة وغيرها، صاحَبَتْها صُنوفٌ عِدة من أشكال

التعذيب المُختلفة، ومنها:

الضرب المُبرح.

الجلد بالسِيَاط.

الجلد بكوابل الكهرباء.

مسك الأذن والأطراف بالمقابض والكلاليب.

نزع الأظافر.

الضرب على الأماكن الحساسة.

وغير ذلك الكثير من أساليب التعذيب الهمجي.

ولعلّ من بَواعِث تعذيبهم لنا، إرهابُنا نفسيًا، حتى نُجبِرَ أَهْلنا عِند أول اتصال على دَفع أي فديةٍ يطْلُبها الخاطفون، فهذا أسلوبهم معنا ومع غيرنا ممن خُطفوا قبلنا.

وبعد ساعات طويلةٍ ومريرة من الاستجواب والتعذيب، ذُقنا خلالها شتى أشكال الألم، واختبرنا فيها ما كان يومًا أشبه الكوابيس المُزعجة، أو بالخيال، الذي لم أتوقع أن نراه ونعيشه واقعًا، مما زاد في معاناتنا النفسية، إلى أن بدأ التعب يتسلل إليهم قبلنا، وصاروا ينسحبون إلى مضاجعهم تِباعًا الواحد تِلو الآخر،

حتى تركونا بمفردنا على إحدى التِلال، لنبدأ بعد ذلك في استرجاع واستيعاب ما حصل، وصِرنا نتساءل مُجددًا هل ما نحن فيه واقعٌ علينا التأقلم معه، أم أنه مَحْضُ خيال سينقشع وينجلي!!!

وما هي إلا بُرهة من الزمن حتى جَزَمْنا بأنه واقعٌ لا شك فيه، وحقيقة لا لَبْسِ فيها، ويقين لا يُساوِرُهُ شَكْ، وعَلَيْنا أنْ نَتَأقْلَم مع ذلك الحال، ودَعَوْنا الله أن يُخَفِّفَ مُصابنا.

وفي اليوم التالي، وبعد ليلة طويلة لا أعلم كيف انْطَوَتْ، ونومٍ متقطع لا هَناءَ فيه ولا سكينة، جاءنا أولئك المجرمون تِباعًا، وبدأوا بإيقاظنا قبل شروق الشمس، وأعادوا تقييدنا على عَجَل، ومُجددًا رُبطت الأيدي إلى الأرجل، وأعادوا لفَّ العمائم على أعيننا، وانطلقوا بنا مُسرعين في ذلك الظلام الدامس، لا يَرَوْنَ من مسالكهم إلا ما أضاءته لهم مصابيح مركباتهم الأمامية، ولا أعلم هل كانوا يحفظون تِلك المسالك جيدًا، أم أن أجهزة تحديد المواقع تَكَفَّلَتْ برسم طريقهم إلى مكانهم الذي هُم قاصدوه.

وبعد مسيرنا لمدةٍ ليست بالقليلة، بدأ ضوء الشمس بالظهور، وبدأ الشُعاع يَمْتَدُ ويَمْتَد، ومُجددًا أبصرتُ النور والضياء، وتمكنت من المشاهدة مُجدداً، كالذي يُبْصِرُ بين عُمْيان، وصِرت أنقل ما أشاهده لرفاق الأَسْر، فما كان مُتاحًا لي آنذاك، لم يكن متاحًا لغيري.

وبعد شروق الشمس واتضاح معالم الطريق وتضاريسها، لاحظت أننا في وادي اخْضَرَتْ فيه الأرضُ قليلًا، وغطّت بعض الحشائش الخضراء أجزاءً منه، كما شاهدت في ذلك الوادي أشجارًا متوسطة الارتفاع، يسميها السكان المحليون ((الطَلَحْ))، ولا أُخفيكم بأن ذلك المنظر أنساني لِلَحَظات تِلك الصحراء الجَدْباء، وتِلك الصخور السوداء، واسْتَبْشَرْتُ بذلك الوادي خيرًا، وأصبحت أُحَدِّثُ نفسي بأنه مهم صَعُبَ الحال، واشتد البأس، واختلط جدب الصحراء بسواد صخورها، إلاّ أنّ كُل ذلك سيُستبدل فرجًا وسرورًا، وما اخْضِرار ذلك الوادي إلا خير شاهدٍ على كلامي

وعلى ذكر ذلك الوادي، أتمنى أن تستذكروه جيدًا فسيأتي ذكره مُجددًا، وسيكون شاهدًا أيضًا على فصل من فصول المعاناة، والطريق إلى النجاة.

وبعد ذلك، اجتازت مركبات الخاطفين ذاك الوادي، وعُدنا إلى تِلك الصحراء الوعرة، ويْ كأن ذلك الوادي لم يكن إلا مُستراحًا لِمَا بعده، والمُعاناة ليست إلا في بدايتها.

استمرت مركبات الخاطفين في التوجه إلى مقصدهم، تَعْبُرُ الدروب القاسية، والمسالك الوعرة، لا يُثْنيهن عن المسير شيء، إلى أنْ بدأت مركبتنا بالاضطراب الشديد، وأصبحت سرعتها تتباطأ تدريجيًّا، ومن قوة الاهتزاز وشدته استطعنا أن نعلم بأنه عُطب في أحد الإطارات، وما تأكدنا منه لاحقًا أن حَجَرًا قد نال من ذلك الإطار ومَزَقَهُ شرَّ مُمَزَقٍ، فيبدو أن ذلك الحجر الأصَمْ قد أحزنه حالنا، وأبى إلا أن يُسْدي لنا معروفًا بأن يوقِفَ تِلك المركبة عُنْوَةً وقَصْرًا، ويُعطي أجسادنا التي أُنْهكت، قِسْطًا من الراحة كُنا نحتاجه لاستجماع قِوانا الخائرة، ورغم يقيننا بأن ذلك الحَجَر الأصم لا يملك ضرًا ولا نفعًا، ولكن لا شك لديَّ بأن الله سخره لمثل ذلك.

وما إن ثُقِبَ الإطار حتى توقفت المركبات تمامًا، ونزل منها أفراد العصابة جميعًا ليُقَيّمُوا جسامة العَطَبْ، وفورًا اكتشفوا

بأن ذلك الإطار قد تشظّى ولا مجال لإصلاحه، ولعله هو الآخر رفض – طَوْعًا أو كرهًا – السير معهم وحَمْلِنا إلى المجهول.

وبعد ما حلَّ بذلك الإطار أنزلونا نحن أيضًا، حتى يخففوا الوزن على المركبة ويسهل عليهم تبديل إطارهم المعطوب بإطارٍ آخر سليم، وانقسموا إلى عدة مجموعات، منهم من انشغل بتبديل الإطار وتغييره، ومنهم من انشغل باللعب والرماية!!!

عجيبٌ أمر أولئك المجرمين، فعلى الرُغم من كل أفعالهم تجاهنا كالخطف والتعذيب والتنكيل ونحوه، إلا أنهم يتمتعون ببرود رهيب في أعصابهم، هو بالنسبة لنا دليل دامغ على تَجَرُّدِهِمْ مِن آدميتهم، فلكم أن تتخيلوا بأنهم يتسابقون ويلعبون ويمرحون كأنهم صِبْيَة صِغار في نُزهة وفُسحة، لا في عملية خطف وحرابة وتعذيب وتنكيل، لدرجة أن أحدهم قام بتثبيت مرمى للرماية والتهديف، وأصبحوا يتناوبون عليه عبر إطلاق الرصاص من أسلحتهم، ويتسابقون من يُصيبه أولاً، ومن يُصيبه أكثر، وأصوات ضحكاتهم لا بل (قَهْقَهَتِهِمْ) تملأ الأرجاء، عجباً لَهُم ومِنْهم!!

وقبل أن ينتهوا من تبديل ذلك الإطار جاءنا أحدهم، وأعطى كُل واحدٍ منا قطعة من (البسكويت)، ولا أعلم في أي

خانة أحسب عمله ذاك، هل من باب الإحسان بنا؟ وهم الذين خطفوا وعذّبوا ونكّلوا، أم ماذا؟

عمومًا أخذنا جميعًا قِطع البسكويت دون تردد، والتَهَمْتُها على الفور، حتى صار صوت (خشخشتها) في فمي اثناء المضغ يُسمع من بعيد، ولم أشغل نفسي كثيرًا بالبواعث، فليس المُقام مُقام اشْتِهاء الأطعمة أو ردّها، فكل لُقمة وكُل شَرْبَةٍ هي طاقة نحتاجها فيما هو آتٍ، وما هو آت لا يعلمه إلا الله.

وبانتهاء تبديل الإطار أعادونا لأماكننا، وانطلقوا بنا مُسرعين في تِلك الدروب الصحراوية، ولا شك بأنهم يُسابقون الزمن لتعويض ما فقدوه من وقت أثناء تغيير ذلك الإطار.

وعِند الظهيرة – تقريباً - من ذلك اليوم وصلوا إلى وجهتهم المقصودة، والتي اتضح بأنها مجموعة من التِباب أو الجِبال الصغيرة يفصل فيما بينها مجموعة من الأودية الجافة، ولعلي لم أخطئ الوصف حين وصفته بأنه (سجننا المفتوح)، كيف لا، وهُم قرروا إبقاءنا هنالك حتى يتحقق مطلبهم الذي خطفونا لأجله.

***

الاحتجاز و الابتزاز

وصلنا إلى مكان احتجازنا أو كما أُسْمَيْتُه (سِجْننا المفتوح)، وأنزلونا من المركبات تِباعًا، وقاموا بفك الأيدي والأرجل من وثاقها، وأزالوا ما على أعْيُننا من أغطية ولَفائِف، وجمعونا مُجددًا ليُعيدوا سؤالنا واستجوابنا مرة أُخرى، ولكن هذه المرة بتوّسع أكثر، عبر السؤال عن أدق التفاصيل، ومنها:

ما اسمك؟

ما وظيفتك؟

كم عدد أفراد أسرتك؟

هل لديك أملاك أو عقارات؟

هل لديك أقارب يَتَوَلون مناصب في الدولة؟

ووو ..... وغير ذلك الكثير، وكل سؤال مما سبق يصاحبه عديد الأسئلة الثانوية، وكثير من الأذى والتعذيب، والإرهاب النفسي والجسدي.

ومن خلال الاستجواب والسؤال أقرّوا بأنهم ما خطفونا إلا

لأجل المال، وأبلغونا بأنهم يريدون مبلغًا من المال في مُقابل إطلاق سراحنا والإفراج عنا.

وبسؤالهم عن المبلغ المطلوب كفدية في سبيل إطلاق سراحنا والإفراج عنّا، ذكروا لنا بأنهم يريدون 20 مليون دينار عن كُل واحدٍ منا، وهنا كانت الصدمة!!!

(شر البلية ما يُضحك) هذا المثل الذي لطالما سمعناه ورَدّدْناه، ولم يكُن يومًا في موضعه – بالنسبة لي - كذلك اليوم، فهؤلاء المجرمون يطلبون 20 مليون دينار عن كُل واحدٍ مِنّا، أي ما مجموعه 100 مليون دينار مقابل إطلاق سراحنا نحن الخمسة، و يا ليتهم علموا بأن سبب ذهابي في تِلك الرحلة - التي خُطِفْنا فيها – هو تَأْدِيَةُ واجب العزاء لأحد الأقارب، وشراء مركبة شِبه مُتهالكة لا يتجاوز ثمنها الآلاف الخمسة من الدينارات، ويلزمها بعض الصيانة قبل أن تُصبح صالحة للاستخدام، ليُعينني الله بها على قضاء حوائجي، فبالله من أين لمثلي 20 مليون دينار.

وعلى ذكر مبلغ العشرين مليون أظن بأن الخاطفين أخطأوا مرتين، مرة بخطفنا، والمرة الأخرى بطلب ذلك المبلغ، فلعلهم ظنوا بأننا ممن اوغلوا في أموال الناس بالباطل، أو من أولئك الذين سرقوا بلادهم واستنزفوا خيراتها ومواردها، وامتلأت بطونهم كما جيوبهم وأرصدتهم بأموال المساكين، ووزعوها بين شراء الذهب والعملات والعقار خارج البلاد وداخلها، وكانوا سببًا من أسباب تعاسة الناس وشِقْوتهم.

وبالعودة إلى خاطفينا وإلى ما طلبوه، عاد الحديث أو بالأحرى (الابتزاز) عن مبلغ الفدية وكيفية دفعها، وذكرنا لهم أنه لا يمكن أن يتوفر ذلك المبلغ لدينا حتى لو أسرونا الدهر كُله، ولن يستطيع أحد دفعه لأن دخلنا محدود ومواردنا محدودة ولا طاقة لنا بذلك.

وما إن سمعوا مِنّا ذلك الكلام، حتى انهالوا علينا بالضرب مُجددًا، وقد اشْتاطوا غضبًا من كلامنا، وهددونا بالقتل – الذي هو أهْوَنُ علينا من عذابهم – في حال عَدَم دفع الفدية.

استمر الأخذ والرَد بيننا إلى أن أدركوا بأنه لا طائل من

الضرب والتعذيب، وأبلغونا بأن القيمة قد خُفِّضَتْ من 20 مليون دينار عن كُل فرد، إلى 5 مليون دينار عن كُل فرد، أيْ ما مجموعه 25 مليون دينار، ومُجددًا قُلنا لهم بأن المبلغ كبير أيضًا، ومُجددًا أعادوا الضرب والتنكيل، ولكن هذه المرة بصورة أَشْنَعَ وأَبْشَع مِن سابقاتها.

ومن تم، تركونا لفترة من الزمن، وعادوا بعد ذلك ليبلغونا بأن المبلغ النهائي لإطلاق سراحنا هو 4 ملايين دينار عن جميع المخطوفين، وهذا المبلغ غير قابل للتفاوض أو المساومة، وخيّرونا بين أنْ نُبَّلغ أهلنا ويتم الدفع، أو أنهم سيقتلوننا غير آبهين بنا، ولن يثنيهم عن ذلك شيء (زعموا).

وبالفعل، أعطونا هاتف (الثُريا) الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية لكي نتصل بأهلنا وننقل لهم مطالب الخاطفين والمبلغ المطلوب حتى يُطلق سراحنا، وأنَّ عليهم دفع ذلك المبلغ على وجه السرعة وإلا فإننا سنُقتل، وبعد هذه الكلمات المَبْتورَة أغلق الخاطفون الخَط، وانهوا المكالمة مباشرة.

كادت أنْ تَقْتُلني

وبما أننا نتحدث عن الاستجواب والتعذيب، فلعلي استَذْكر حادثة وقعت قبل الاتصال بذوينا، حيثُ إن الخاطفين وفي أثناء استجوابهم لنا أرغمونا على فتح هواتفنا عُنْوة حتى يتسنى لهم رؤية محتواها، وذلك من خلال تفتيش الصور ومقاطع الفيديو وغيرها، بحثًا عما يدُل علينا، وليعرفوا عنَّا المزيد، فبالعادة إنَّ (الأستوديو) في الهواتف المحمولة وما يحتويه من صور ومقاطع فيديو هي توثيق وتجسيد لحياة الإنسان الطبيعية وتُرجمان لها، وهي دليل على نمط حياة الإنسان، من سفرٍ وترحالٍ ومعيشةٍ ونحوه، ومن خلال ذلك سيحددون مستوى معيشتنا ولأي طبقةٍ ننتمي.

وبتفتيشهم للهواتف وتحديدًا هاتفي، راحوا يتَجَوَلون فيه صعودًا ونزولًا، إلى أن عثروا على إحدى الصور التي ما أن رأوها حتى اعتلتهم نظرة ذهولٍ وتعجب، واعْتَرَت وجوههم الصدمة، ولا أخفيكم بأنني فُجعت وخِفت مما وجدوه وشاهدوه في هاتفي، وزاد الفزع أكثر حين بدأوا يتبادلون هاتفي بينهم، ويتناقشون بِلُغَةٍ غير مفهومة، إلى أن سألني أحدهم:

- هل أنت عسكري؟؟؟

وفي لحظة ذهولٍ وصَمْت صُعِقْت من السؤال، وتساءلت عن سبب سؤالهم لي، وما الذي وجدوه في هاتفي واسْتَوْجَبَ هذا السؤال.

وأجبتهم بكل ثقة:

قطْعًا، أنا لستُ عسكريًا.

وأعدت تذكيرهم بأنني لستُ إلا موظفًا في قطاع الصحة، وليس لي أي نشاط غير ذلك، ليعيدوا السؤال مُجددًا:

أنت تكذب، وأنت عسكري؟

فأعدت إجابتي بكُل ثقة:

أنا لست عسكريًا، ولم أكن يومًا كذلك.

فأداروا لي هاتفي المحمول، وأراني أحدهم تلك الصورة التي (كادت أن تقتلني)، والتي كانت لي وأنا على مركبة نوع:

(Jeep) موديل (40bantam brc-)

وصُنِعَت عام 1941 تقريبًا، وقال لي:

هذه سيارة عسكرية وها أنت تقودها، إذن أنت عسكري؟

وأَعَدْتُ عليه ذات الإجابة:

أنا لست عسكريًا، وهذه السيارة ليست عسكرية، وهذه السيارة قديمة وعتيقة، ويستخدمها أبناء عمومتي للتجول بها في المناطق الصحراوية المُتاخمة لقريتهم، كما يستخدمونها للصيد ورعي الماشية.

فصاح قائلًا:

أنت تكذب.

وفي أثناء تلاسُنِنا، قطع حديثنا أحد أفراد العصابة، وحاول التهجم عليَّ وضربي، ولكن تم منعه من ذلك.

وأعدت الشرح مرات ومرات، محاولًا إقناعهم بأنني لستُ عسكريًا، وما أنا إلا مجرد موظف مدني، ولكن كُل ذلك غير ذي جدوى، وأُرهقت نفسي وأنا أُردد ذلك الكلام إلى أن تركوني وشأني، ولم يرد إلى مخيلتي يومًا بأن هذه الصورة ستُسبِّبُ لي المشاكل أو المتاعب بل وكادت أن تتسبب في مقتلي!!!!

وبعد ما حصل بخصوص تِلك الصورة، وبعد اتصالنا بذوينا وطلب الفدية أيضًا، بقينا على تبّة، وهُم إلى جوارنا على تِباب

مُقابلة، وكُلهم يقين بأننا لن نهرب، بل ولن نُفكر حتى مُجرد التفكير في ذلك، فإن كان المجيء إلى هذا المكان قد استغرق ساعات وساعات بالمركبات، فكم سيستغرق الهربُ منه سيرًا على الأقدام.

***

غَدْرُ الضِّباع

حلّ الليل، وحّل معه الظلام، وتَرَكَنَا الخاطفون لوَحْدِنا، وأصبحنا نتجاذب أطراف الحديث - كما جرت العادة - مع رفاقي الأَسرى، ولكن لشعورنا بالإعياء والتعب الشديد لم يطل حديثنا ولا سَمَرُنا طويلًا، وخلدنا إلى النوم جميعًا، لنرتاح قليلًا على الرُغم من أنه لا راحة لمن فقد حريته، وأضحى أسيرًا تحت رحمة الأوغاد.

وبينما نحن نِيام، وعِند الفجر تقريبًا، استيقظتُ على ركلةٍ قوية بحذاءٍ – أظنه - عسكري كادت أن تُهَشِّم عظامي، وارتج على إثْرها كامل جسدي، وإذْ بها ركلة من أحد الخاطفين، جاءني متسللًا، وعلى الرُغم من الظُلْمة إلا أنني استطعت أن أعلم بأنه يحمل رشاشًا وقد طوّق عنقه (طَوْقٌ) الرصاص، وهو يأمرني بأن أتبعَهُ في صمت وألا أوقِظ أحد، وكان كُل ذلك همسًا وتمْتَمَةً.

وعلى الفور استيقظت وأيقظت (إسماعيل) أحد أبناء عمومتي الذي كان مختطفًا معي لأنه أقربُ النائمين بجواري،

وطلبتُ منه أن يُرافقني بعد أن شرحتُ له على عجل بأن ذلك المُجرم أيقضني وطلب مني اللحاق به، وعلى الفور تبعني (إسماعيل) دون تردد، وصِرنا نتبع ذلك المُجرم دون أن نعرف وجهته أو مُراده.

ونظرًا لأنني كُنت أعاني من إصابة سابقة، وقد أرهقني المشي خلفه، وأصبحت خطواتي تَتَثاقل شيئًا فشيء، ولم أعد أقوى على المشي، سألتُ ذلك الخاطف:

اسمع أنت وين ماشي بينا؟

بل وأظنني لم أكمل سؤالي له، وإذْ بذلك المجرم يستدير نحونا خائنًا غادرًا تمامًا (كغدر الضباع)، لا بَلْ أشدُّ غدرًا، وقام بالرماية علينا مباشرة برشاشه الذي يحمله، فبدأ الرصاص يخرج بلا هوادة، وأعْمى وميض ذلك الرشاش عيْنَيَّ، بل واخترقت إحدى الرصاصات ساقي، لِتَتَناثَر دمائي على الفور، وتتطاير أشلاءٌ من قدمي، وسَقَطْتُ على الأرض فورًا من هَوْل ما حدث!!!

اسوّد المشهد في عينيَّ، على الرُغم من سواد الليل، وسواد قلب ذلك المُجرم، إلا أن تِلك اللحظة كانت أكثرُ سوادًا وأحلكُ

ظُلْمةً، فما حصل وبتلك السرعة جعل عقلي يتوقف عن أداء وظائفه للحظات، عاد بعدها لاستيعاب ما حصل شيئًا فشيئًا.

حاولت سريعًا أن أعي ما حصل، فعندما تكون نائمًا في مضجعك، ويأتيك أحدهم خِلسةً وتسلُلًا، ويأمرك بإتبّاعه، فتتبعه، وعندما تسأله عن الوجهة، يُوجه عليك رشاشًا، ويَرُشُك بالرصاص رشًا، بكل عدوانية وهمجية، ويُغرقك في دمائك، فحتمًا ذلك الأمر لا يحدث إلا في الخيال، أو معي...

وبعد الرماية عليَّ، صوّب ذلك المُجرم الرشاش نحو (إسماعيل) محاولًا قتله أيضًا، ولكن - بفضل الله وحده – تعطَّل ذلك الرشاش، وتوقف عن الرماية، وصَمَتَ رُغمًا عنه وعن صاحبه، ليعود للمكان سكونه، بعد أن دوّت فيه أصوات الرصاص.

وما أن توقف أزيز الرصاص حتى صُمَّتْ أُذُنَيَّ من شدة الصوت واقترابه مني، لِّيَعْقب ذلك الصوت طَنينٌ يخترق القناة السمعية لأُذُني، ولا يَسْتَقِر إلا في دماغي مُتَمَوِجًا، يتردد صداه ويُفْقِدُني القدرة على التركيز، وصِرْتُ أتَرَنَحُ وأتمايل، وحاولت أن

أُعيد لجسدي توازنه عَبْرَ فتح ذراعي، ولكنني عبثًا أحاول، لأكتشف بعد ذلك، أنَّ تِلك الرصاصة قد اخترقت قدمي وخَرَجَتْ على الفور دون أن تستقر في جسدي، لِتُخَلِّفَ وراءها ساقًا مُمَزَقًا، ولحمًا متناثِرًا، ودماءً رَوَت التُراب، وألمًا لا يُطاق ولا يُحتمل.

وبفضل الله وكرمه لم تُصبني في جسدي إلا تِلك الرصاصة، رُغم أنَّ ذلك السفاح حاول جاهدًا أن يُعيد الرماية، لكن الرشاش أبَى، ورفض، فما كان من ذلك المجرم إلا أن يُعيد محاولة الرماية علينا مرات ومرات، وصار يَسْحب سلاحه بِيَدَيْهِ ورِجْلَيْه بسُرعَةٍ رهيبة، أملًا في إعادة الكَرَّة، وبإصرارٍ غريب، ولكن دون جدوى، فإرادة الله كانت أنْفَذْ، ليكتُبَ الله لنا النجاة من الموت مرة أخرى.

وما أن سمِعَ باقي الخاطفين تِلك الرماية، حتى هَرَعوا إلينا مُسرعين وهُم في فزَعٍ وصدمة، يتساءلون عن تِلك الرماية ومصدرها، لِيُجيبهم ذلك المُجرم بِكُلِ كذبٍ وقُبحٍ ليس عليه بغريب:

لقد رأيت هؤلاء الاثنين يُحاولون الفرار فأطلقت النار عليهم كي أوقفهم وأمسكهم!!!!

فردْتُ عليه رُغم الصَدْمة وما بي من ألم:

إنك كاذب، فأنت أيقظتنا، وأنت طلبت مِنَّا أنْ نَتبعك، وأنت من قام بالرماية علينا دُون أدنى سبب.

وما إنْ أَتْمَمْتُ هذه الكلمات، حتى قام بِلَكْمي غادرًا من جديد، فعلى ما يبدو أن إطلاق الرصاص وتمزيق لحمي لم يكفه، فأراد أن يزيد من مُعاناتي وإهانتي، ولكنَّ أحد الخاطفين حال بيني وبينه، ليس رحمةً بي أو شفقةً منه، بل لأن ثمني نقودٌ وأنا حي، خيرٌ عِندهم وأثمن من قتلي وموتي.

وبإبعاد ذلك المُجرم عني وابتعادهم جميعًا، وبفشل عملية قتلنا، اتَكَأْتُ على رفاقي الأُسرى والدماء قد ملأت المكان، وصِرتُ أُبادل الخُطى مُنهكًا والألم في ازدياد، وعُدنا نحن كذلك إلى حيثُ كُنا ، لِيَعُمَّ الصمت والسكون المكان، وليبدأ رفاقي بمُحاولة إسعافي بما توفر، ولكن لا شيء بيدهم، ولا شيء يملكون، إلا قِطعة القُماش تِلك، والتي مُزِّقَتْ من ثوب أحَدِهم،

وقاموا بربط مكان الإصابة بقوة حتى يتوقف النزيف، فلا سبيل لذلِك إلى بِذَلِك، أي لا سبيل لإيقاف النزيف إلا بربطه، وفعلًا توقف النزيف ولو إلى حين، وعُدْنا إلى النوم!!!

وعلى ذِكر النوم، لعل متسائلًا يسأل، كيف لنا أن ننام مُجددًا، وتِلك الضباعُ البشرية تُحيط بنا من كل جانب، وكيف لنا أن ننام بعد أن حاولوا قتلنا بِكل برود، وأي مِزاج لنا لِنعود إلى مضاجعنا؟

ولعلي أُجيب:

إننا من لحظة اختطافنا وأسْرِنا قد احْتَسَبْنا أنفسنا في عِداد الموتى، فلم نعهد ولم نشعر بأن الموت قريبٌ مِنَّا كَقُرْبِهِ في تِلك الأيام، فالموت كان يتربص بنا من كُل جانب، وفي كُل وقت وحين، ولكن ما حال بينا وبينه، هو أنَّ أعمارنا وآجالنا بيد الله وحده، ولها وقتٌ محدد لن تستقدمه ولن تستأخره، فعلامَ الخوف والهلع؟ فأمرُنا كُلُه قد أوكلناه لرب الأرباب، وإلى من لا يُظلم عِنده أحد، لِذلك سَحَبْنا ما توفر من أغطية، وهَيأْنا أنفسنا للنوم، إلى أنْ نال النوم مِنا.

وما أن أشرقت الشمس، حتى هَمَمْنا بالاستيقاظ من نومنا، وبدأنا نستعيد ونَسْتَذْكِرُ ما حصل، ولا أظن بأن هناك ما يَسُر فيما استذكرنا، ولا أظن ذلك إلا كابوس مُزعج، لا نُفَضِّل استحضاره ناهيك عن الحديث عنه.

وبعد استيقاظنا بقليل، أتى أحدهم وطلب مني فك الرباط الذي لَفَفْنا به الجُرح، وبدأ بِتَسْخين قليل من الماء، إلى أن وصل لدرجة الغليان، ومن ثم بدأ بسكب الماء على موضع الإصابة، في محاولة بدائية لتطهريه وتعقيمه فيما يبدو، وتَلَى سكب الماء على موضع الجُرح ألم شديد لم يُبْقِ لي إلا الصُراخ.

وما إن انتهى من سكب الماء حتى احضر قُرص مضاد حيوي، وقام بشقّ ذلك القُرص وإفراغ ما به من مواد على مَوْضع الإصابة، وأعاد لف الجُرح مجددًا، لتنتهي بهذه البساطة والسُرعة عملية إسعافي وتطهير الجُرح.

ليمضي ذلك اليوم كبقية أيام الأسر، بين تحقيق، وسب، وشتم، وإهانة، ولم يتغير الحال عن سابق الأيام.

وفي صباح يوم 14 أكتوبر من عام 2018، وعِند حوالي

الساعة الحادية عشر صباحًا، سَمِعْنا أصوات إطلاق نار بعيد من مكان احتجازنا في البدء، ولكن ذلك الصوت صار يدنو مِنّا شيئًا فشيئًا، إلى أن صِرنا نسمع اشتباكات متقطعة بالقرب من مكان احتجازنا بين المجموعة التي تحتجزنا ومجموعة أُخرى مُهاجمة، لم نعرف في حينها من تكون، وما سبب هذا الهجوم.

وبسؤال الخاطفين عن المجموعة المُهاجمة، قالوا لنا بأن هذا الهجوم سببه خِلاف وسيُحل قريبًا، فما كان مِنّا إلا الدعاء:

(اللّٰهُمَّ اضرب الظـالمين بالظـالمين وأخـرجنا مـن بينهم سـالمين).

واستمرت تلك الاشتباكات ذلك اليوم إلى فترة ما بعد العصر تقريبًا، وكانت عنيفة جدًا بين المُتحاربين، وبعدها هدأت تدريجيًا.

ولمعرفة ماهية الاشتباكات وطبيعتها بل وحتى أطرافها، ينبغي الإجابة عن بعض التساؤلات:

لمن تتبع القوة المُهاجمة؟

وكيف وصلوا إلى مكاننا؟

وهل فِعلاً أن سبب الهجوم خلاف؟

تبيَّنَ لنا لاحقًا بعد تحريرنا أنّ تِلك القوة المُهاجمة ليست إلا قوة قد أتت لتحريرنا من قبضة عصابات الخطف والحرابة، وكان من ضمن تِلك القوة سرية اسمها (خالد بن الوليد) ومعها قوة مُساندة من بعض الكتائب والسكان المحليين، أتو جميعًا لتحريرنا وفك أسرنا بعد أن حددوا مكان احتجازنا.

***

عزيزي القارئ، استسمحك عُذرًا بأن نعود سويًا للخلف قليلًا، مِن لحظة اختطافنا، وتقفي أثرنا، مرورًا بفترة احتجازنا، ومن ثم تحريرنا، ماذا فعل أهلنا، ومن هبَّ لنجدتنا، ومن دفع الأرواح لأجلنا، وغير ذلك الكثير مما علمناه بعد تحريرنا، ففي ذلك السرد ذِكْرٌ لبعض التفاصيل التي يجب ألا تُهمل، وتِبيانٌ لتضحيات من قدموا الدِماء والمُهَجْ، في سبيل تحريرنا.

وكُل ذلك سيكون في الفصل التالي، على أن أعود لنفس النُقطة التي توقفت عِندها حتى يحصل التسلسل الطبيعي في السرد.

اقتفاء أثرنا

ذَكَرتُ في بداية القصة أننا كنا في رحلةٍ بين منطقتين عِندما تمَّ اختطافنا من قِبل عصابات الخطف والحرابة، وعِندما اسْتَبْطَأ أهْلُنا وصولنا أرسلوا مجموعة تَقْتَفي أثرنا وتُحاول معرفة سبب تأخرنا، فقد تجاوزنا وقت الوصول المُفترض.

وبالفعل خرجوا إلى الصحراء يقتفون الأثر، ولم يَطُل الأمر كثيرًا حتى وصلوا إلى المكان الذي خُطفنا منه، وعند رؤيتهم للمركبات من بعيد ظنوا أنها قد تعطلت أو لا وقود فيها، فلم يخطر في بالهم غير ذلك، أو لعلهم تعمدوا ألا يرِدَ إلى أذهانهم أكثر من ذلك، وما أن وصلوا إلى ذلك المكان حتى وجدوا النساء بمفردهن، لا أحد معهن إلا الله، وحالهن لا يعلمه إلا الله، ليُصاب الجميع بالذهول!!!

وبوصولهم وسؤال النساء عما حدث، أبْلَغْنَهُمْ بأن الرجال قد خُطفوا جميعًا من قبل عصابة من المجرمين، ليرجع الجميع على الفور من حيث أتو برفقة النساء والمركبات، وقاموا بإبلاغ

ذوينا بما حصل لاتخاذ ما يلزم.

وما أن بَلَغَ الخبر أهلنا حتى بدأ الجميع شيبًا وشبابًا بالتوافد، فالكل هرع إلى نقاط تَجَمُعٍ مختلفة، كلٌ بما توفر لديه من مركبات وسلاح وذخائر ونحوه.

ولا تعجب عزيزي القارئ من ذكر السلاح وانتشاره، فالكل يحمل السلاح في بلادنا، فما نمر به من ظروف استثنائية فرض على الجميع حمل السلاح حفاظًا على الأنفس والأموال، وخلق نوع من التوازن في المُجتمع.

وفي قرية الفقهاء تقرر أن يكون التجمع ونقطة التلاقي والانطلاق، وذلك لأن تلك البلدة قريبة من مكان اختطافنا، واقتفاء الأثر من هناك سيكون أفضل وأجدى.

وبالفعل انطلقت تِلك المجموعات من مدينة سبها كُبرى مدن الجنوب الليبي، بالإضافة إلى بعض البلدات المُجاورة لها، ليتوجهوا جميعا إلى بلدة الفقهاء.

وفور وصولهم إلى الفقهاء خرجوا جميعا إلى الصحراء يقتفون أثرنا، وبالفعل عثروا على (محمد ساسي) ذلك الشاب الذي ذكرته

في بداية القصة، الذي كان معنا أثناء أسْرِنا ومَكَّنُهُ الله من الفرار من الخاطفين ولم يلحقوا به، ونجّاه الله من رحلة العذاب والموت.

وبالعثور على (محمد) سَرَدَ لهم ما حصل بالتفصيل، وحَدَّدَ لهم عَدَدَ المركبات وأنواعها، وعدد من كانوا عليها، كما بَيَّنَ لَهُم أيُ اتجاه سَلَكُوا، فتوجه الجميع في ذات الاتجاه الذي سَلَكَهُ المجرمون، ولكن غروب الشمس كان هو الأقرب، وقرر الجميع العودة إلى بلدة الفقهاء لينطلقوا في الصباح الباكر، وهي فرصة لِلَمْلَمَةِ الصفوف وتنظيمها وترتيبها.

وفي الصباح الباكر خرج الجميع في اتجاه الجنوب، وهو الاتجاه الذي سلكه الخاطفون، وتم تحديد أشكال عجلات مركبات المجرمين، وذلك من قبل بعض السكان المحليين، الذين لهم دِراية وخبرة وحِنكة في الصحراء ودروبها الوعرة، وصاروا يتبعون تلك الآثار عبر المسالك الصحراوية الوعرة، وقطعوا مسافة كبيرة قبل أن يصلوا إلى الطريق المُعبّد والذي يربط بين بلدتي تَمِسَّة وزَويلَة، حيثُ وَصَلَتْ آثار العجلات إلى هناك.

وبعد وصولهم إلى تِلك المنطقة انظمت لهم مجموعة جديدة، وساروا جميعا في رحلة البحث عنَّا كُلٌّ بما توفر لديه من معلومات، ولعَّل السِمَة الغالبة على بحثهم هي سُرعة البحث والتقفي، فكل لحظة تأخير تعني طول أمَد البحث، وابتعاد الخاطفين، وعناء يزيد كل لحظة.

❊❊❊

أم الأرانب

بعد وصول الجميع إلى الطريق الرابط بين بلدتي تَمِسَّة وزَويلَة قرروا التوجه إلى بلدة أم الأرانب فجميع الشكوك والشُبهات تحوم حول تلك المنطقة، حيث يوجد بها مشروع سكني يضم مئات الوحدات السكنية الغير مُكتملة، التي اتخذت منه بعض العائلات سكنًا ومأوى، كما ينشط هناك بعض الأفراد الذين يمتهنون الخطف والحرابة، ويطلق على تِلك المنطقة (الصينية)، وذلك نِسبة للشركة المنفذة لذلك المشروع التي كانت من دولة الصين.

ونَظَرًا لصعوبة الدخول من قبل أهالينا والمجموعات المساندة لهم، إلى مقر (الصينية) قرروا التوجه إلى مقر سرية خالد بن الوليد، وهي إحدى السرايا بمنطقة أم الأرانب.

وبالوصول إلى مقر السرية وإعطائهم المعلومات المتوفرة عن الخاطفين ومركباتهم وعددهم، باشَرَ أفراد السرية بجمع المعلومات عَبْرَ التحري عن هوية الخاطفين، وتحديد مكان

احتجازنا، وعن إمكانية تحريرنا في حالة التوصل إلى مكاننا، بحكم أن تلك السرية ومنتسبيها من تلك المنطقة، ولهم طريقتهم وأسلوبهم في جمع المعلومات، وَيَسْهل عليهم ما يصعب على غيرهم، والجميع بدأ التحري بطريقته وبحسب ما هو متاح.

***

مكان احتجازنا

وأخيرًا، وبعد بحثٍ وتقصي، تم تحديد مكان احتجازنا حيث وصلت معلومات إلى تلك السرية، وبدأت مرحلة إعداد الخطط وحصر القوة التي سَتُهاجِم، إضافة إلى إعداد العُدة والسلاح، وجميع ما يلزم لتحريرنا.

والجدير بالذكر والتوثيق أن جميع أنواع الدعم المالية والعسكرية واللوجيستية كانت عبر التبرعات من الخيّرين بالمنطقة وخارجها، سواءً كانوا أفرادً أو مؤسسات أو كتائب محلية، ولم تقم الحكومات لا في شرق البلاد ولا غربها بتقديم أي شيء آنذاك إلا الوعود.

ولضمان السرية لم تُعطَ المعلومات التي تم الحصول عليها لأحد، حتى لا يُغيّر الخاطفون مكان احتجازنا، وبالتالي يصعُب إيجادنا من جديد، لذلك تم التَكَتُم التام والتجهيز في أقصى درجات السرية.

والجدير بالذكر أن النقطة التي احتجزنا فيها الخاطفون، هي

وادي بِنْغَنيمَة بالقرب من بلدتي تمسة وأم الأرانب، وهي عبارة عن وادي به عدد من الجبال والتِباب اختاره الخاطفون لصعوبته وسهولة التخفي فيه.

وبعد اكتمال التجهيزات حُدد يوم 16 – 10 – 2018 للهجوم على مكان احتجازنا في محاولة تحريرنا من عصابات الخطف والحرابة التي كانت تحتجزنا في ذلك الوادي.

وبالفعل انتهت التجهيزات النهائية للهجوم، وقد كانت القوة تتألف من:

عديد السرايا والكتائب الفاعلة، بالإضافة إلى القوة المساندة التي تضم أفرادًا مدنيين، تجنبنا ذكر الجميع حتى لا نقع في فخ النسيان، فكل من هبَّ لنصرتنا وفك أسرنا هو محل فخر وشكر وثناء، ويكفيه أن الله من فوق سبع سموات يعلم صنيعه، ونسأله أن يجازيه عن نصرتنا خيرًا.

***

الهجوم والاشتباك

تحركت المجموعات التي اجتمعت لتحريرنا نحو الهدف المُحدد، إلى أن وصلت تلك المجموعات إلى مشارف وادي بِنْغَنيمَة، وعلى الفور بدأ الاشتباك مع عصابات الخطف والحرابة، وكان اشتباكًا عنيفًا بحسب ما بلغنا، وكانت الغلبة فيه في البداية للقوات المهاجمة – لتحريرنا - وكادت أن تنتهي سريعًا.

ولكن يبدو أن معلومة الاشتباكات قد تسربت بطريقة أو بأخرى، وقام الخاطفون بطلب دعم من عصابات أخرى نشطة في ذات المنطقة، الأمر الذي غيّر المعادلة، وقلب موازين المعركة، فقد وصل للعصابة التي تختطفنا دعم يتمثل في عدد من المركبات المسلحة والمدرعات التي وصلَتْ من مكان ليس بالبعيد على ما يبدوا، وقَدَّمَت تلك العصابات الدعم والإسناد الخاطفين، الأمر الذي رجّحَ كفة العصابات نوعًا ما.

وبالمقابل تَحَصّلَتْ القوة التي جاءت لتحريرنا على دعم

أيضًا، لتتعادل الكفة لا بل رجحت - الكفة - لمن هبّ لتحريرنا، فما كان من عصابات الخطف ومن ساندهم إلا أن تقوم بنقلنا والانسحاب بنا إلى نقطة أخرى، وذلك بسبب ضراوة المعركة وتفوّق المهاجمين.

وفي ذروة الاشتباكات والحرب الضروس، سقط العديد من الجرحى التابعين للقوة المهاجمة، كما ارتقى عدد من المقاتلين الذين جاءوا لتحريرنا وفك أسرنا ونحتسبهم عند الله من الشهداء، وقد سُجلت أسماؤهم بأحرفٍ من نور، وضربوا أروع ملاحم البطولة والفداء، وقدّموا دماءهم الزكية رخيصة في سبيل تحريرنا وفكاك أسرنا، على الرغم من أنه لا تربطنا بهم أي صلة لا من قريب ولا من بعيد، وجادوا بدمائهم وأنفسهم، وهُمْ:

1 – مبروك الجيلاوي.

2 – نور الدين الجيلاوي.

3 – علي رامي.

4 – وردكو قلمة.

ونحتسبهم عند الله من الشهداء ولا نزكي على الله أحدًا.

وبعد ارتقاء هؤلاء الأربعة وسقوط الجرحى استمرت المعارك، ولم تخلوا هذه المعركة من الخِسة والغدر والخيانة، وهي من سمات تلك العصابات، فقد نصبوا كمينًا، وتمت محاصرة أفراد من القوة المُهاجمة وأصبحوا يشتبكون معهم في جولة أخرى من جولات العز والشرف، خاض خلالها أولئك الفُرسان أشرس المعارك إلى أنْ نَفذت ذخيرتهم، فقُتل من قُتل في الاشتباك، وتم تصفية من أُسر، في جريمة بشعة تُضاف لسجل أولئك المارقين.

فقد تم العثور على جثامين المُقاتلين الذين تمت تصفيتهم في أحد الأودية القريبة من منطقة الاشتباك، في مشهد مُرَّوِع لا يدل إلا على انحطاط أولئك الأوغاد المُجرمين.

وعلى الرغم من قساوة المشهد وبشاعته، إلا أنّ تلك اللحظات نُقِشَتْ في صفحات التاريخ، لا يمحوها النسيان، فقد ارتوت الأرض بدمائهم العَطِرَة، واحتضنت ذات الأرض أجسادهم الطاهرة بكل شرفٍ وأسى، شرف بأن نالت تِلك

البقعة فخر ارتقاء أرواح أولئك الأبطال من عليها، وأسى بأن فارقوا هذه الدنيا وتركوها إلى غير رجعة، فكذلك هم الأبطال دائمًا، تحزن لفقدهم حتى الأرض الصماء.

وفي تلك الملحمة ارتقى كلٌّ من:

1 – عبد الحكيم عبد الله.

2 – إسماعيل المهدي الهضيب.

3 – أبوبكر الشيخ معاذ.

4 – احمد عبد الصمد.

5 – عبد الله ساسي.

6 – احميد بكاري.

وقد لحِقوا بإخوانهم الذين سبقوهم، لتُسجل أسماؤهم أي في صفحات العز والشرف، وليكونوا مدعاة فخر لأهلهم وذويهم وللجميع بلا استثناء، فقد برهن أولئك الأبطال أنهم خير مثال للتضحية التي لا يُقابلُها عِوَضْ، وتقديم النفس رخيصة لإنقاذنا من عصابات الخطف، ولنعيش ولو كان الثمن دماءهم.

والله تتبعثر الكلمات في وصف تِلك التضحيات، ويتلعثم اللسان في الحديث عن أولئك الأنقياء (نحسبهم)، وأما عن القلم فقد سال حِبره حُزْنًا، حتى امتزجت الكلمات وما عاد للكتابة معنى.

إن أولئك الأبطال طوّقوا أعناقنا بمعروفٍ لن نستطيع الوفاء به، فهم تيجان الرؤوس، وأعلام الفِداء، ونسأل الله أن يُجازيهم الجنة، وأن يُصبّر أهلهم على فِراقهم، ويلهمهم السكينة.

وبعد ذلك الانسحاب والكمين الذي غُدر فيه بمن ذكرنا، انسحب المُجرمون من مكان تمركزهم، ولكن هذه المرة حدث شيء غريب لم يكن في الحُسبان، وكان مُنعرجًا في رحلة أسرنا، بل وكاد أن يودي بحياتنا عديد المرات، حتى أن أرواحنا كادت أن تُزهق.

فماذا حصل، وماذا حلّ بِنا، وماذا فعل بنا الخاطفون، هذا ما سأسرده في الفصل التالي، الذي يُعتبر عودةً للنقطة التي تركناها سابقًا حتى لا يفقد السرد قيمته، وها أنا أعود وأواصل الحديث عن مُعاناتنا، وكيف سارت بنا الأقدار...

الانسحاب

بعد أن اشتدت الضربات على عصابات الحرابة من قِبَلِ القوة التي جاءت لتحريرنا، قام الخاطفون بتجميعنا مُجددًا على إحدى التِلال القريبة، وأصبحوا يتشاورن في أمرنا، هل يقتلوننا، أم يتركوننا، أم ماذا يفعلون؟؟

ولعلنا لم نفهم كثير مما يقولون صراحةً، ولكن سياق الأحداث، وطريقة حديثهم، وجميع الظروف كانت توحي بذلك، فما كان مِنَّا ولا لَنَا إلا الصبر الذي لا نملك غيره، لمعرفة ما تُخَبِئُه الساعات القادمة.

ومع اشتداد الوثاق عليهم، وتضييق الخناق، زاد عِوائهم وصراخهم، ليفرَّ أولئك الجُبناء على عجل، وتركونا لوحدنا على تِلك التبّة، وكلنا حيرة وذهول!!!

فما الذي حصل؟

ولماذا تركونا لوحدنا؟

هل هو كمين؟

هل سيعودون؟

أم أنهم ذهبوا إلى غير رجعة؟

وبعد ما دار بيننا من حديث عما حصل، هَمَمْنَا على عَجَل وفَكَكْنا قيودنا، ولا أخفيكم أن لِتِلك اللحظة أثَرًا في نفوسنا، فقد بعثت فينا الأمل والتفاؤل، بأننا قد تحررنا من أولئك الأوغاد، وأننا قد نعود إلى بيوتنا وأهلنا وأولادنا، ولكن ما أوقف موجة التفاؤل تلك، (كيف) و(كيف) سنعود!!!

❊❊❊

إلى غير رجعة

وسعيًا لمعرفة (الكَيْفْ)، تحركنا من مكاننا الذي كُنا فيه، نستطلع التِباب والجبال القريبة، لنعرف هل يزالون بالقرب منَّا، أم أنهم اكتفوا بتركنا في تِلك الصحراء اللامُتناهية، لنُلاقي مصيرنا لوحدنا بعد فرارهم مهزومين مرعوبين إلى (غير رجعة).

ولا عجب أنهم لم يتركوا لنا شيئًا، لا ماء، ولا غذاء، ولا فراش، ولا أي شيء، فهُم لم يخطفونا ليطعمونا، وما أظنهم إلا أنْ أرادوا لنا الموت، ولكن أرادوا ذلك ببطء، وببطء شديد.

ولحَظَةً بعد أخرى، بدأَ الخوف يتسلل إلينا واحدًا تِلو الآخر، وصارت معنويات الشباب في تراجع، كيف لا ونحن في تلك الأرض الوعرة، بلا ماء يروي ظمأنا، ولا غذاء يسدُّ جوعنا، ولا ظِلَّ نَستظل به من أشعة الشمس، ولا لحاف يقينا برودة الليل، فتلك الأيام كانت ذات طابع خاص، ومناخ عجيب، فقد جمعت بين حرارة الشمس نهارًا وبرودة الجو ليلًا، ويكأنه قد كُتب علينا أنْ نُقاسي فصولًا متباينة في تِلك الأيام القليلة،

لتزيد المعاناة، ويشتد الحال، لنرى في تِلك التجربة المتناقضات والعجائب..

ومِن تَبَّةٍ إلى أخرى، ومِن جَبَلٍ إلى آخر، كانت خطواتنا جيئَة وذهابا، نَسْتَطْلع تارةً، ونرتاح تارةً أخرى، ونضع خلفنا ما قد يوصل إلينا، عبر جمع الحجارة، ووضعها بطريقة تدل الباحثين علينا، أو بتعليق أجزاءٍ من الملابس ووضعها كالأعلام يُسْتَرْشَدُ بها إلينا، لمن سلك دربنا أو اقتفى أثرنا، فقد كُنا نسمع بأن غريق البحر يتعلق بقشة ظنًا منه أنها ستحميه من الغرق، وهذا ما عِشناه واقعًا في تلك الصحراء القاحلة.

ودون جدوى، لم نجد شيئًا وتوقفنا عن البحث، وقررنا أن نجد مكانًا نأوي إليه في ليلتنا تلك، فالشمس شارفت على المغيب، وبغروبها ستختفي المعالم وسَيَعُم الظلام ولو مؤقتًا، وسَنُرْهِق أنفسنا بلا فائدة، فَكُل حركة وكل مجهود هو استنزاف لنا، وطاقة مهدورة لا يُقابلها عِوَضْ، لذلك اخترنا التوقف والراحة، لعل الله يغير ذلك الحال.

***

دُونَ جَدْوَى

وبالفعل آوينا إلى مكانٍ دعونا الله أن يقينا به بَرد الليل، ودعونا الله أيضًا أن تَمُر هذه الليلة سريعًا، فكلما استحضرنا أننا في عَرَضِ الصحراء دون مأكلٍ أو مشربٍ أو لِحاف يقينا برد تلك الليالي وحر نهارها ارتعدنا خوفًا من قادم الأيام، التي نعلم جيدًا بأنها مُرعبة وحُبْلى بالمشاقْ.

وكغيرها من سابقاتها، انطوت تلك الليلة بكل ما فيها من بردٍ قارص، وافتراشٍ للأرض، حتى دَنَا الفجر، وأتانا النهار مُقْبِلًا على مَهَل، وبدأت الشمس تُرسل إلينا نورها وشعاعها، نورًا يُبَدِدُ ظُلمة الليل الحالكة، وشُعاعًا لاذِعًا يُذكرنا بحرارة تلك الأيام.

وبعد أن ارتفعت الشمس قليلًا، وَاصَلْنا البَحث مُجَددًا، عَن أي طريق أو دليل، أو أي شيء يُخرجنا من تيهنا وضياعنا في تِلك البقعة الخالية من كوكب الأرض، بل أظنها ليست على الأرض، فلا شيء يدُل على شيء، وكل المعالم قد تشابهت علينا،

وأصبحنا كَمَنْ يدور حول نفسه، وأصبح البحث (دون جَدوى)، ولا شيء يُعْطي أمَلًا لِنَسْتمر، حتى خشينا أن تكون النهاية، ونستسلم ها هُنا.

ولكن ...

ولأننا بشر، بل ولأننا نعلم علم اليقين بأن الله لن يخذلنا، واصلنا المسير والبحث، حتى وإن كانت النهاية، يكفينا شرفًا بأننا لم نستسلم، واستمريْنا لآخر نفس، رُغم كل ما يحيط بنا من مُحبطات.

وما إن بَلَغَ النهار ذروته، واستقام كُلُ ظل، عُذرًا... فلا تظنوا بأن هُنالك ما نستظِلُ به إلا ظِلُ أجسادنا، ولا شيء فوقنا يقينا حر الشمس، وبقي الحال كما هو، لا جديد، إلى أن بَلَغْنَا المساء، وأتْمَمْنا يومًا كاملًا بليلته، ولم يدخل جوفنا شيء، حتى لاحظنا بأن اللُعاب بدأ يتناقص من فِيهنا، وأدركنا بأن الجفاف يطرق أبواب أجسادنا، رُغم قناعتي بأنه لا يستأذن، وسينال مِنّا إن خارت قِوانا، وعلينا أن نجد حلاً نتدارك به أنفسنا، وإلا...

وقُبيل المساء، سألت رفاقي الذين أنهكهم التعب والعطش:

من سيذهب معي!!!

تعجب الجميع من السؤال، وسكتوا لبُرهة من الزمن، قبل أن يردوا السؤال بسؤال:

وإلى أين ستذهب؟

فأجبتهم:

إن البقاء هُنا هو النهاية بعينها، لذلك سأحاول الذهاب لأي مكان، وفي أي اتجاه، المُهم ألا أبقى هُنا انتظر موتي، فإن يأتيني الموت وأنا في عَرَضِ الصحراء ماشيًا باحثًا عن الحياة، خيرٌ لي من أن تفيض روحي، وأنا هُنا يائسٌ مستسلمٌ أموتُ ببطء.

ولأن رفاقي أُنهِكوا، ولم يعودوا يقوون على شيء، قرروا البقاء في مكانهم، وأما أنا فقد اتخذت قراري، وعَزَمْتُ على الذهاب، لأبدأ فصل جديد من فصول المُعاناة، ولعلَّ ما يميز قادِم الأيام عن سابقها، أنني بمفردي، لا خاطفين، ولا مخطوفين، ولا أحد معي، فقط أنا، لا بل أنا والموت...

❊❊❊

أنا والموت

ترددْت، وفَكَرْتُ، وَقَرَرْتُ، وهَمَمْتُ بِتَرْك رفاقي، وغادرت تِلك التبّة، ولا أعلم هل أراهم مُجددًا ويرونني، أم أن هذا الفراق هو فراقٌ للأبد.

وعلى عجل، ما كان منهم إلا أن ودعوني وداع المُفارق الذي لا يُرْجى لِقاؤه، وقد تراءَ لي ذلك جليًا في نظراتِ أعينهم، حيث امتزجت المشاعر والأحاسيس، بين ألم الأسى والفراق، وأمل البحث والنجاة.

ولأن الوقت مهم، قررت عدم إضاعته في تحليل المشاعر وترجمتها وتحركت على الفور، وتركت رفاقي خلفي وسِرْتُ مُسْرعًا، وعلى الرغم من إصابتي في قدمي برصاص ذلك المجرم، إلا أن الأمل بداخلي كان أقوى وأكبر من الألم، وصِرتُ أُبَادِلُ الخطوات الواحدة تِلو الأخرى، ولا أعلم حينها إلى أين تقودني قدماي، هل إلى النجاة من ذلك الكابوس، أم إلى كابوس أعظم.

وبمغادرة التبّة التي كُنّا عليها، اتجهت إلى جبل آخر قريب

لا يبعد الكثير، في محاولة للصعود عليه لعلّي أرى فوقه ما لم أرَ تحته، وبوصولي إليه بدأت بتسلقه رُغم عدم سهولته، ولكنني صعدت ببطء، حتى أتفادى ما قد يؤثر على جُرحي، أو يزيد ألمي.

وبِبُلُوغي قِمة ذلك الجبل، لم تُبصر عينيَّ شيء جديد، ذاتُ المعالم، وذاتُ المشاهد، يمينًا، وشمالًا، ومِن الأمامِ أيضًا، أما خَلفي فذلك دَرْبي الذي جِئْتُ منه، الذي لن أنظُر إليه البَتّة، فمهما كانت النتائج، ليس لي إلا المسيرُ قُدُمًا.

وبعد استطلاع المكان، نزلت على الفَوْر لأواصل مَسيرتي، فالوقتُ يَمُر، والشمس شارفَتْ على المَغيب، والبحثُ ليلًا أصعبُ وأصْعَبْ، إنْ لَمْ يكُن ذلك مستحيلًا.

***

القَدّاحَة

وفي طريق بَحْثي لَفَتَ نَظري شيء ما، لمْ أعْرف ما هو، فقد لاحظْتُ انْكِسار الضَوْء وانعكاسه بصورة ما، حيثُ بعض الأشياء لها بَريقٌ ولَمَعَان، وقَطْعاً ليس ذَلِك رَمْلاً ولا حجر، ولكنه شيء استَحَق أنْ أزيدَ الخُطى مُهَرْوِلًا لأعْلَم ما هو؟؟

فهناك، حيثُ كُنتُ أنا، كل شيء له قيمته، مهما كان ذلك الشيء بسيطًا.

وبوصُولي لمَصْدَر ذلك اللمعان، فإذا بِهُنَّ ذَخائِر نُحاسية فارغة، وإذا بذلك المكان هو مكان الاشتباك الأخير مع القوة التي جاءَتْ لتحريرنا، وفي ذلك المكان تحديدًا كان يتمركز خاطفونا قبل فرارِهْم، وبِتَفَحُصِ تِلك الأشياء لم أجد لهُنَّ فائدة تُرجى، وهذه المرة خاب أملي في العثور على ما ينفعُني في مِحْنَتي.

وليس بِبَعيدٍ عن ذلك المكان، اكتشفت أثَرًا لِنيرانٍ كانت مُشتعلة، وعثرتُ على قميصٍ أُشْرِبَ دَمًا، وبَتَقْليبِهِ بَدا لي بأنَّ الدَم حديثٌ ولمْ يَكُنْ قَديمًا، وباسْترجاع الأحْداث تَذَكَرْتُ

بأنَّ ذَلك الثَوْب يعود لأَحَدِ جَرْحَى الخاطِفين في الاشتباك الأَخير، حَيثُ نُزِعَ مِنْهُ أثناء إسْعافه، وتُرِكَ هُناك حَيثُ وَجَدْتُه.

وبِتَفتيش ذلك القميص، وجَدتُ فيه بعضَ المَشارِط، وبعض الدُرَيْهِمات، ولَكِنَّ الكَنْز الثَمين، والغَنيمةَ الكُبْرى، كانَتْ احْتواء أحَدِ جُيوب ذلك القميص على (قَدَّاحة).

نَعَم، وجَدْتُ قَدَّاحة، ونَعَم هي أعْظَم ما وجَدت، وليْسَ مِنَ المُبالغة أنْ تَكون كذلك، فأنْ تَكون تائِهًا في صَحْراءٍ شَاسِعة لا نِهاية لَها، وخاوِيَة لا شيء فيها، وتَجِدُ (قَدَّاحَة)، قَدْ تُشْعِلُ بِها نَارًا تَقيكَ بَرْد الليل، أوْ دَليلًا عَلى إنك مَرَرْتَ مِنْ هُنا، فَهِيَ نِعْمَ مَا تَجِد، ونِعْمَ ما تَحْمل.

وبعد عُثوري على تِلك القَدَّاحَة حَمَلْتُهَا وَطِرْتُ بِها فَرَحًا، كَفَرْحَةِ طِفلة صَغيرة أُهْديت دُمية رُغم أنها في حاجة الثياب، ولا أعْلَمُ هَلْ بِهذا التَعْبير والوَصْف، عَبَّرْتُ عن مشاعري في تلك اللحظة أم أنَّ الألْفاظ خانَتْني.

وبِأْخذي لِمَا وَجدت، عَاوَدْتُ المَسير، وكانت الشمس تُشْرِفُ على الغروب، وصِرْنا أنا وهي نَتسابق، مَن يسْبِقُ مَنْ، هل تَسبقني

وتَخْتَفي وتُوقِفُ خُطواتي وبَحْثي، أمْ أنني سأكون أنا الأسْرع، وأخطو مزيدًا من الخُطى نحو هَدفي وغايتي.

آهٍ من تِلك الشَمس، وآهٍ من غُروبها، فلقد غادَرَتْ مُسرعةً على غير عادَتِها، ذَهَبَت تُسابق الزمن وتسابقني، ولِسانُ حالها يُقول:

(سأخْتَبِرُ صَبرك، وسأختبر قَوَّتَك، بَل سأخْتَبِرُكَ في وَحْدَتك، وسأترُكك الآن، ومُلتقانا غدًا إن كان باستطاعتك الصمود ليومِ الغَد).

***

شَيْءٌ مِن الذِكريات

وبعد أن تركتني الشمس وحيدًا، بدأ الظلام يَفْرد أجنِحَته على المكان، وبدأ ينتابني شعورٌ غَريب لمْ أَخْتَبِرُهُ قَبْلًا، فكَوني قَدْ خُطفت فهذا أمرٌ قد أَلِفْتُهُ، وأنْ أكون أسيرًا مَع رفاقي فقَدْ اسْتَسَغْتُ ذلك أيضًا، ولكن أن أكون في عَرَضِ الصَحراء لِوحدي، لا أمْلك ما يسدُ جوعي، حتى أن أمْعائي بَدأت تَعْصِرُ بَعضها عَصْرًا، ولا ما يَرْوي عَطَشي لِدرجة أنَّ اللِسان يَلتصِقُ في فَمي مِن شِدة العَطش، ولا مَرْكبة أقودها وإنما قدماي اللَتَانِ تَوَرَمَتا مِن كَثرة المشي، ولا جِهاز أُحَدِدُ بِه اتجاهي ووُجْهَتي بَل قد بَلَغْتُ مِن الضياع أنني لا أعْرِفُ أَيْنَ أنَا، ولا إلى أيْنَ سأذْهب، فهذه المشاعر المُمْتَزِجة أصابَتْني بِذُعْرٍ لا يشَابِهُهُ ذُعْر، وخَوْفٌ لا يُماثِلُهُ خَوْف، بَل أنني لمْ أخْتَبر قَسْوَةً أقسى مِن ذلك، ولا أيامًا أحْلَك ظُلْمة من تِلك الأيام.

وبحلول الليل تَسَمَّرْتُ مكاني، وَيْ كأنني تِمْثالٌ نُحِتَ مِنْ حَجَر، لا فَرْقَ بَيننا إلاّ..... بِشَهيقٍ يَدْخُلُ إلى رِئَتي، وبِزَفيرٍ يَخْرجُ

مِن أنْفي.

وأما عن الحركة، فلم أعُد أحَرِّك ساكنًا، وعَيْناي لا تُبْصِران إلا السَوَاد، ولمْ أَعُد أُمَيِّزُ بين السماء والأرض إلا بتلك النجوم، وعَقْلي أشْبِعَ حيرة، إلى أينَ سَأمْضي، وأينَ سَيَنْتَهي بِي المَطاف؟

وبَيْن الحيرةِ تَارةً والتَفْكير تَارةً أُخرى، أبى العَقل إلا أن يُذَكرني بِمَن أُحِبُ وأَهْوَى، فَبَدَأَ يَعْرِضُ عَلَيَّ شَريط الذكريات، لِيُصْبِحَ الأفُق الواسع مَسرحًا تُعرضُ عليه ذكرياتي، لِيَتوالى العَرض ويتناوب من اسْتَذْكَرْت.

فتذكرتُ عائلتي، وابنائي، وأهلي، وتَذكرتُ أيضًا أني هُنا، وهُمْ هنالك، أَعْلَمُ أين هُم، ولا يَعلمون أينَ أنا، ولكن كِلينا لا يَعْلم كم بَيننا من المسافات، وكِلينا لا يعلَمُ هل سَتُطْوَى الأرْض بَيننا ونَلْتَقي، أمْ أنَّ الأقْدَار تَحْمِلُ غَير ذَلك.

إنَّ تَذَكري لِعائلتي جَعلني أتساءل، هَل يَفَكِرون بي؟ هَلْ يَبحثون عني؟ هل يَبْكون لأَجْلي؟ هَل سَتُقرُ عَيْناي بِرُؤْيَتهم مُجددًا؟ أمْ أن كل شَيْء انتهى؟

أتذكر جَيدا أنني فَكرت في أبي، وفَكرتُ في أمي، وفَكَرْتُ في

إخواني، رُغم أن الوَقت ليسَ وقت ذِكرى، ولكنَّ الحَنين يزدادُ لمِن نُحِب في الكُرَبِ والمِحَن، فقدْ تعلمتُ وجزَمْت بأنّ الخِلّان مِن نِعَم الله التي لا تُحصى، وفراقهم والبُعد عنهم، ألم، ووجع، وقسوة، تَفْطِرُ القَلْب، وتَكْسِرُ النَفْس، ولا يَعْرِفُ ذَلك إلا مِثلي...

إنّ الجميع كان له نَصيبٌ منْ ذكرياتي، فَمِنُهم مَنْ مَرَّ طَيفهُ سَريعًا، ومنهم من تَبَخْتَرَتْ ذِكْراه، وصِرْتُ أُراجِعُ خَلَجاتِ الفكر، وأُخْرِجُ كُلُ شَيءٍ أَصِلُ إليه، كُلُ حُلْوٌ، وكُلُ مُرٌ، فَقد كان ذلك مَخْرَجي مِن عُزلَتي ولو إلى حِين.

وباسترجاع الذكريات تارةً، والتفكير فيما يجب أنْ أفْعَلَهُ تارةً أخرى، بَقيتُ على ذلك الحال انْتَظرُ فَرَجَ الله، جَاثِمٌ في مَكاني لا أُحَرك سَاكِنًا، والسواد يغمرني من كل جانب، إلا مِن بَعض النجوم، التي كانت تَزْدانُ لَمَعانًا، وبَريقًا، وسِحرًا، ولكن.. ما أنا فيه، أنساني ذاك الجمال، وأجبرني على عدم الاكْتِراث كَثيرًا، فالجمال يُرى بِعين السكينة والهدوء، وأمَّا أنا فلا أرَى إلا المَوت الذي يُحيط بي من كل جانب، ولا أفكر إلا به.

القمر

بَين الشُرود، والتَفْكير، واستحضار الذِكريات، وبين الجلوس وتَسمّري في مكاني، شدَّ انتباهي ضَوْءٌ خافِت في جِهَةٍ ما، بَدَأَ يَتَّسِع ويُشِّع شَيئًا فَشيْئًا، وكُلَما ازداد الضوء اتساعًا ونورًا، ازدادت دَقَاتُ قَلْبي خَفَقَانًا ونبضًا، وزاد تركيزي أكثر، وَوَجَهْتُ حَواسي إلى مَصدر تِلك البُهرة، وانْتَصَبَ ظَهْري قَائِمًا لا يَعْتَريهِ أَيُ انْحِنَاء، ورفعتُ رأسي قليلا، وأذكر أيضًا بأنَّ عَينيَّ بالكَادِ كانت تَرْمشان مِنْ شِدَةِ التَرَقُب والانْتِظار.

وبعد قليلٍ من الانتظار، وكثيرٌ من الترقُب، تَرَأَى لي مصدر تِلك البُهرة، وإذا به قُرص القمر من الأعلى، يُرسل نوره وضياءه ويُقرأني السلام.

أذكر جيدًا ما دار بيننا من حديث عند رؤيته (والقمر أقصد)، وأذكر أنه قال لي:

لا عليك يا مُحمد... لا تَلْتَفت لِلْوَحْشَة، ولا تحزن للوحدة، ولا تَخَفْ من العَتمة، فها قد جِئتك مؤْنِسًا في وحشتك، ورفيقًا

في وحدتك، ومُبددًا لظلمتك، وسأكون معك أَمْلَأُ الكَوْن نورًا لك، لتستمر في مسيرك حتى النهاية.

سعدتُ بالقمر، وسعدتُ بهمسه، وسعدتُ ببوحه، وزادت سعادتي بضوئه ونوره، ولكنني... سألته على استحياء:

أيها القمر،،

إلى أين أذهب؟

ومن أين أبدأ؟

وأي درب أسلك؟

فليس لي مِن أحدٍ أسأله فَيَدلني.....

أجابني في حُزْن:

لقد جئتك مؤنسًا دون غيري، وأَنَرْتُ لَك دروب الظلام، ولكنني... لا أملك لأسئلتك جوابًا، وليس لي أنْ أَدُلُك على ما لا أعرفه، وما أنا جازمٌ بِه، أنك أهلٌ لأنْ تَصل، وأهلٌ لأنْ تَبْلُغَ ما تُريد..

أحزني ما سمعت من القمر، فقد تخلّ عني كما فعل الجميع، ودعوت الله الذي لا يُدْعى غَيْره، أنْ يُرشدني إلى طريقٍ تَنْتَهي فيه

مُعاناتي، وإلى مَسْلَكٍ يكون الخلاصُ به مِن أوجاعي وآهاتي، فقد زَادَ حِملي ثِقلًا، وازدادت قِوايَ خَوْرًا، فآلام الإصابة بِتِلك الرَصَاصة التي أُصِبْتُ بها تَزْدادُ سُوءًا لَحظة بَعد أخرى، وَبَدَأ مَكان الإصَابة يَلْتَهِبْ، وعَاد الجُرْحُ يَنْزِف، والله وحْدَهُ يَعْلَم ما عانيت من تِلك الإصابة، وأيُ ألمٍ قَدْ تَجَرَعْت.

وبمرور الوقت كانَ الوضع يَزداد سوءًا، لِدَرجة أنَني أَصْبَحت أجُرُّ قَدَمَيَّ جَرًا، من شِدَّة ما حلّ بِهِما، فَقَد تَوَرَمَتا، وانْتَفَخَتَا مِن كَثرة المسير على تِلك الدروب الرملية والصخرية الوَعِرَة، وكُل لحظة تَمُر تَزْداد المُعاناة والآلام أضْعافًا وأضعافًا.

وبالعودة إلى القمر الذي ارتفع إلى كَبَدِ السماء، وبعد أن انْقَشَعَ الظلام قليلًا وَتَبَدَدَ عني السواد، وَبَدَتْ مَعالِمُ المَكان تَتَضِح قليلًا، ليعود السؤال مُجددًا... إلى أين سأمضي؟؟؟

❊❊❊

الشِهاب

إنَّ التساؤل السابق أرَدْتُ لهُ إجابة، فَأَنْ أمشي بِلا وُجْهَةٍ مُعينة، ولا مَسَافَةٍ مُحَدَدَة، فَتِلك مهْلَكة لا شَكَّ فيها، لِذلك وَجَبَ عليَّ أنْ أَخُذَ قَراري وأتَحَرك مِن ذلك المكان قَبل أنْ تُشرق الشمس، ويُصبح المسير أصْعب، ويزدادُ هَدري لِما بَقي من طاقة في جسمي.

وعلى الفور هَمَمْتُ بالوقوف مُجددًا، ورفْعتُ رَأْسي إلى السَماء، والتفتُّ يمينًا وشمالًا، وأخذت نفسًا عميقًا، وصِرْتُ أحرك عيناي في كُل اتجاه، لعلي أجد ما أتخذهُ دليلًا، وأنطلق من جديد.

في أثناء وقوفي وبَحْثي، لَمَحتُ شِهابًا يَسْقط في جِهةٍ ما، تَنَهَدْتُ، وتَبَسَمْتُ، واعْتَبَرْتُ ذَلك الشِهاب إشارَة لي كَيْ أنطلق، ودليلٌ حِينَ فَقدتُ الدليل، ليْسَ تعلقًا به ولكن بمن أرسله، واعتبرته هدية من الله يُرْشِدُني بِه إلى النجاة، فحُسنُ ظَني بالله لمْ يَخِب يَومًا، وأَعْلَم يقينًا، بأن الله الذي رَدَّ يوسف لأبيه،

وَأَخْرَجَ يونس مِن غَـوْرِ الحُـوت، سَـيَرُدُني لأهـلي سـالمًا غانمًـا، ويُخرجني من هذه المِحنة، وكأنَّ الضُرَ لم يَمْسَسني يَوْمًا.

وبِجُرْعة الأمَلِ واليقين تِلك، تَرَكْتُ مكاني، وتركت خَلْفي اليأس والتذمر، وذَهَبْت في اتجاه سقوط ذَلك الشِهاب، في خُطى مُتَتَابِعة غَير مُنتظمة، خُطوة طويلة وأخرى قصيرة، فأما الخُطى الطويلة فأحاول أن أقطع بها أطول مسافة ممكنة، وأما القصيرة فإني أَجُر بها قدمي المُصابة، وأحاول ألا اجعل من المسير سببًا في التهاب الجُرح أكثر.

وبتتابع الخُطى، عُدْتُ أرسم دَرْبي الجديد في تِلـك الـصحراء الشاسعة وفي تِلك الليلة المُظلمة، إلا من قَليلِ ضَوء القَمَر، ولا أَخْطو خُطوة إلا وأحدِّثُ نفسي، بأنَّ هذا المَوْضِع مِنَ الأرْض لَمْ تَطَأهُ أَقْدامُ بَشَرٍ قَبْلي، مُنذ أنْ خَلق الله الأرْض ومَن عَليها.

وبعد مسيري لِمسافة طويلة، خَطَر بِبَالي شَيْء أَرَدْتُ أَنْ أُنْجِزَه!!!

***

النار

خطر ببالي أن أُشْعِل نارًا بِما تَوَفَرَ مِن حَطَبٍ مما تُنبت تِلك الأرض، فبإشعالها سَتَكون دليلًا على مروري منْ هُنا لِمَن تَبِعَني أو تَقَفَّى أَثَري، وما أنْ انتهيت مِن جَمْعِ ما جَادَتْ بِهِ الأَرْضْ عَلَيَّ، مِن أَعْوادٍ وأَغْصانٍ ونحوه، وَبَدَأْتُ بتكديسهِ عودًا على عودْ، وغُصْنًا على غُصنْ، حتى أَضْحَتْ كَوْمَة لَا بَأْس بِها، تَصْلُحُ لإضْرام النيران فيها.

وبَعد تَكْديسِ الحَطَب، أَدْخَلْتُ يَدَيْ في جَيْبي، وَأَخرجْتُ تِلك (القَدَّاحة) التي وجدتها سابقًا، وأشعلتُ النار في أَحَدِ الأغْصان أَسْفلَ الكَوْم، بَعْدَ أَنْ غَمَرْتُهُ بِيَدَيَّ حتى يَسْهُل إشْعاله ولا يَنْطفئ، وعُودًا بَعْد عُود شَبَّت النَار في ذلك الكَوْم لا يُوقف لَهيبها شَيء، حتى وصلت ألسِنَتها كبد السماء، وارتفعت حرارتها بِذات السُرعة، وَأَبْهَرَ شُعاعُها عَيْنَاي، لِدرجة أَنَني لَمْ أَعُدْ أحْتَمِل النَظَر إِليها مِنْ شِدة الوَهَج، وأغْمَضْتُ عَيْنَيَّ عَلَى الفَوْر، وَلَمْ أَفْتَحْهُمَا إلا بِبُطْءٍ شديد، بَعْد أنْ اعتادت عَينيَّ على

ذلك الشُعاع.

وبَعْدَ أَخْذي لِقِسْطٍ مِن النور والدِفء، صَارَ الوَهج يَهْفُت، والنار أَصْبَحَت جمرًا، والجَمرُ أضَحْى رَمَادًا، فَقَرَرْتُ أَنْ أكْمِلَ مَسيري في ذَاتِ الاتجاه الذي سَقَط الشِهاب نَحوه، وتَرَكْت ما تبقى من تِلك النار يأكل بعضها بعضًا خلفي، وصِرتُ أمشي إلى الأمام وألتفت إلى تلك النار، أمشي وألتفت، أمشي وألتفت، إلى أنْ ابتعدْتُ عَنْها، وتَلاشَتْ عَن ناضريَّ، ولمْ أَعُدْ أَرَى مِنْها شَيئًا، فاسْتَدَرْتُ إلى الأمَام وواصَلْتُ الخُطى مُبتعدًا، لا هَمَّ لي إلّا أنْ أصِلَ مُبتغاي، وأعْثُرَ أو يُعْثَرَ عليّ.

وبابتعادي عن مكان اشتعال النار، وقَطْعي لِمَسافَةٍ لا بَأْسَ بِها، بَدَأْتُ أُلاحظ احْمِرار جُزْءٍ منَ السماء، وعَرفتُ أنَّ الصُبح اقترب، بَعْدَ أنْ مَشَيْتُ تِلك الليلة بِطولِها، دون نومٍ أو راحةٍ، وأَيُّ رَاحَةٍ ستكون لِمَن كانت السماءُ لِحافه، والأرضُ فِراشه، تائهٌ لا يَعْرِفُ مكانه أحد، ولا يعرفُ مكانَ أحدٍ.

وباقتراب الصباح، سارعتُ الخُطى لأنّ المسير في النهار وفي الظهيرة تحديدًا يكادُ أنْ يكون مستحيلًا، لارْتفاع دَرَجة

الحرارة، وازْدِيَاد افْرَاز العرق، مما يعني مزيدًا من فقد الماء، ومزيدًا من العطش.

وفي أثناء سَيْري وقبل شروق الشمس بقليل، عَثَرْتُ على أَثَر لمركبةٍ صحراوية، وبالتدقيق في ذلك الأثَرْ غَلَبَ الظن لدَيَّ بأنه يعود لإحدى مركبات الخاطفين إنْ لم تخنِّي الذاكرة، لذلك لَزِمْتُ ذلك الأثرْ وبدأتُ أَتَّبِعه دون معرفة لمن تكون تلك المركبة، ودون الجَزْم هل كانت ذاهبة أم قادمة فما كان يهمني أو ما كان متاحًا حينها، هو أنْ أَلْزم ذلك الأَثَرْ وأتبعه مهما كانت الوجهة، ومهما بَعُدَتْ المسافة.

وبعد أنْ بَزَغت الشمس، وعمّ نورها الأرجاء، انْجَلَى ظلام الليل، وصار كل شيء واضح، ومُجددًا، ذات الرمال وذات الصخور، وذات الدروب الوعرة أيضًا، حتى ظننتُ بأنني لم أخْطُ للأمام خطوة، ومسيري كل تلك الليلة كمَنْ راوَحَ مكانه، أو دارَ حول نفسه، فلا شيء تغير وما بِتُّ عليه بالأمس ها قد أصبحت عليه اليوم، ولكن رُغم ذلك سأستمر ولن أعرف لليأس سبيلًا بإذن الله، رُغم الجوع، ورُغم العطش، ورُغم كل شيء.

الماء

وبعد شروق الشمس وارتفاعها، لم أتوقف عن اتباع أثر تلك المركبة وعينيَّ لا ترتفعان للأعلى إلا ما نَدَرْ، وذلك خِشْية أنْ أفقد الأثر، فقد كان بالنسبة لي دليلًا للنجاة، وسبيلًا إليها.

وفجأة!!!

أبصرت عينيَّ عددًا من قنينات الماء البلاستيكية وآثار أقدام وحركة، علمتُ من ذلك الأثر أنَّ من كانوا على تلك المركبة اتخذوا هذا المكان للمبيت، وقد أتضح لي ذلك جليًا من أثارهم، فقد وجدت أثرَ نار انطفأت حديثًا، وتلك القنينات التي طرتُ لها مسرعًا على أمل أنْ أجد فيها ما يَبِّلُ ريقي، فقد كان العطش قاهرًا وقاسيًا ومميتًا، وبدأت بفتحها واحدةً تلو الأخرى، ولكنها خلت تمامًا إلا من بعض القطرات التي بالكاد وصلت إلى فيّ، ولم تدخل إلا بعد أن لَعَقْتُها بِلِساني، فلم تُغْنِ مِنْ عَطشي شيئًا، ولكن حسبي أنني في الاتجاه الصحيح، ويجب أن أستمر.

أحسست بنوع من الطاقة المعنوية، وأما تلك الرَشَفات فَلَم تسدَ رَمَقي البتّة، ولكن بِشُرْبِها زاد أملي وزاد الإحساس بالارْتِواء، وتابعتُ طريقي تبّة تِلو تبّة، ووواديًا تِلو آخر، أمشي تارةً وأتوقف تارة أخرى، ألتفت يمينًا ولا شيء إلا الأفق الواسع، وكذلك شمالًا، لذلك لا خيار أمامي إلا المسير قدمًا.

وبعد قطعي لمسافة ليست بالقليلة، وجدت قنينة ماء أخرى، شرب منها من شرب، ولم يترك لي فيها إلا خمسُ قطرات أو أقل، لا تُشكل مجتمعة رشفة واحدة، ولكنها كسابقاتها كانت لي أملْ، فَرشفتُ ما بداخلها وتابعتُ الخُطى ورميتُ تلك القنينة بعد أن أصبحت جافة تمامًا .

إن اتبّاعي لآثار تلك المركبة كان قرارًا صائبًا، وكان ذلك بتوفيق من الله وحده، فما وجدتُ من قنينات وما احتوته من قطرات ورشفات كانت حافزًا لمواصلة البحث، ودفعتني للأمام رُغم ما أعانيه من ألم، وأسى، ووحشة.

فألم قدمي المُصابة كان يزداد مع كل خطوة أخطوها، والأسى تسلل داخلي مع مرور الوقت حتى كاد أن يملكني، وأما الوحشة

فقد حَفَّتْني من كل جانب، وصِرْتُ اعتادُها مُرغَمًا لا مُختار.

جلست قليلا، ولا أعلم هل ذلك الوصف ينطبق عليَّ أم لا، فعادة الجلوس أن يكون بهدوء وَرَوِيّة، وأما أنا فقد جَثَوْتُ على رُكبتيَّ بكل قوةٍ لتصلا إلى الأرض أولًا، وتبعهما باقي جسدي تمامًا كما تجلس الدواب، فالتعب نال من جسدي، وذلك الجلوس أو (البُروك) ما هو إلا لأخْذِ قسطٍ من الراحة والتقاط الأنفاس، فمازال ورائي الكثير، والمصير مجهول، والطريق طويلة.

وما أن أخذت قسطًا من الراحة حتى عاودت عادتي التي لا أملك غيرها، ألا وهي المشي، إلى أن استوقفتني علبة صغيرة، وإذا بها علبة عصير فواكه صغيرة من الورق، رماها من سارَ قبلي على ذلك الدرب، وعلى الفور تَلَقَفْتُها، ورَجَجْتُها بجانب أذني باحثًا عن صوت يدل على وجود بعض العصير بداخل تلك العلبة، ولكن الصوت كان ضعيفًا وبالكاد سمعتُ شيء، فَقَلَّبْتُ العلبة رأسًا على عقب ووضعت فتحة العلبة ومخرَجَ العصير على شفتيَّ في منتصف فمي تمامًا، حتى لا يتسرب مِنهُ شيء، فكل قطرة تساوي الأمل، وكل قطرة تساوي الحياة بالنسبة

لي.

بدأت أرشف، ولكن لم يخرج من تلك العلبة الكثير، ولم يكن فيها الكثير لأرشفه، فقررت فتحها وتمزيقها، فحتمًا هنالك بعض القطرات مختبئة في ثنايا وزوايا تلك العلبة لم يُخرجهن الرج ولا الرشف.

مزقتها من الأعلى على مهل، وبدأت أرى وسطها بلونه الفضي، وقطرات العصير ملتصقة في تلك العلبة من الداخل، تمامًا كالطفل الحزين المختبئ في زاويةٍ ما لا يريد أن يخرج منها، ولسان حال تلك القطرات يقول:

لن نخرج لك طوعًا، بل ولن نخرج لك رجًا، فاذهب في طريقك ودعنا وشأننا.

لم استمع لهن – وقطرات العصير اقصد – وواصلت تمزيق وشقّ تلك العلبة، وأخرجت لساني الذي نال منه الجفاف، وصار يَلْعَق تلك العلبة على مهل، من أعلى لأسفل، ومن أسفل لأعلى، لا يثنيه شيء، إلى أن أتم مهمته حتى آخر قطرة، لألعق بعد ذلك أصابعي التي كانت تمسك العلبة، فكل قطرة كان اللسان أولى

بها، وبعد الفراغ من الأصابع نالتْ الشفتان نصيبهن من اللعق.

وبانتهاء جولة الشُرب تلك، أمسكت العلبة من أحد أطرافها ورميتها، وكلي سرور يزداد ويكبر شيئًا فشيئًا، فحمدت الله ودعوته أن يكشف عني هذه الغُمة، ويحفظني إلى أن أصل إلى بر الآمان، رُغم أنه لا يوجد دليل يوصلني إلى ذلك البَر، إلا آثار تلك العجلات، رغم جهلي للوجهة التي تقودني لها تلك الآثار، إلا أنني أواصل مسيري وأنا على يقين بأنني سأنجو مهما اشتدت الظروف، وعَظُمَ البلاء، فمن هيأ لي رشفات الماء وقطرات العصير في تلك الصحراء القاحلة، حتمًا سيُنجيني ويهوّن عليَّ.

***

أَرْجُل الغَزَالْ

ومُجددًا أسرعت الخُطى، فالوقت يُداهمني، وكلما ارتفعت الشمس أكثر واقتربت الظهيرة، كُلما ازدادت درجة الحرارة ارتفاعًا، الأمر الذي سيفقدني ما تحصلت عليه من طاقة وقوة.

وأثناء سيري، لفت نظري من جهة اليمين عجلة سوداء، وُضعت بطريقة رأسية، لم تكن في ذات الدَرْب التي رسَمَتْهُ تلك الإطارات التي اتَّبِعُ أثرها، ولكنها تبعد عنها قليلًا، وانتابني شعور غريب برؤية تلك العجلة، فكأنها تهمس لي:

(ادْنُ مني، فإن لك عندي ما تأمل، فأنا هُنا كي أدُلُك على ما يُفيدك).

أو لعلي هكذا تخيلت، لذلك تركت دربي وتوجهت صوب ذلك الإطار.

وباقترابي من تلك العجلة لاحظت بجوارها كَوْمَةً من أشياءٍ لمْ استطع تمييزها في البدء، فتلك الرُقْعَة من الصحراء لم تكن رملية، وإنما كانت ذات طابع صخري وعِر، لا تستطيع الرمال

غمر ما على الأرض من أشياء، على عكس الدَرب الرملي الذي كُنت أسلكه.

بلغت ذلك المكان، وإذا بتلك الكَوْمَة أرْجُل تعود لحيوانات تم اصطيادها وأكلها في وقت سابق ليس بالقريب، لا أذكر العدد تحديدًا ولكنها بالعشرات تقريبًا، وبتفحصها جيدًا فإذا بها أرجل لحيوان (الغزال)، الذي لا يُستغرب وجوده في الصحراء الليبية وخصوصًا في الجنوب.

وإلى جانب أرجل الغزال، وجدت أيضًا مخلفات - لمن كانوا في ذلك المكان - نالت الشمس منها باستثناء قنينات زجاجية لمشروبات غازية، كانت شبه فارغة، ولكنها مُحْكمة الإغلاق، وبالنظر لتاريخ صلاحيتها تبين لي أنها منتهية الصلاحية قبل عامين، ما يعني أنها شُربت قبل عامين كاملين على أقل تقدير.

وعلى الفور بدأت بفتح ما وجدت، ولم أفكر في شيء آنذاك إلا شرب كل ما سأجده، فلم يعنيني ما قد يترتب على ذلك من تسمم أو نحوه، فما أعانيه من عطش وإرهاق، أكبر من التفكير في عواقب شرب تلك القنينات.

زجاجة وراء أخرى صِرت أفتح وأشرب، فزجاجة بها الكثير وأخرى بها القليل، وبعضهن لا تحتوي على شيء، المهم أنني لم أترك واحدة إلا وفتحتها، حتى أتممتهن جميعًا، وأخذت واحدة فارغة معي فسأحتاجها حتمًا في شيء ما....!!!

بانتهائي من الشرب، مشيت قليلًا ولكنني بدأت أشعر بحرارة الشمس ووهجها يَلْفَحُ وجهي، فقد اقتربَ وقْتُ الظهيرة، حيث الأرض تزداد سخونة، ويصبح المشي على تلك الرمال والصخور أشبه بالمشي على النار، لا بل هي النار بعينها، وتزداد المشقة لدرجة أن فتح العينين يصبح صعبًا من شدة الحر والوهج.

ازدادتْ درجات الحرارة في الارتفاع، لدرجة أنني لم أعُد أقوى على الحركة، فقررتُ أن أتوقف عن المشي، حتى لا أصاب بالجفاف أو ضربة شمس، لذلك آويتُ إلى جِذع شَجَرَةٍ لعله يقيني من تِلْك الشمس وحرارتها، ويخفف عني سخونة الجو.

وبالفعل بقيتُ متسمرًا في ذلك المكان لساعات طويلة، أتَّكأ حينًا، وأجلسُ حينًا، وأنام حينًا آخر، أُفكر، وأُخَمِّنُ، وأَتَحَدَثُ حتى مع نفسي، أفعل كل ما يمكنني فِعله، أتفقد كل

شيء، وأبحث في كل شيء، أَتَفَقَدُ أطرافي، أنظر إلى يَدَيَّ وأقَلِبُهُمَا، أتَحَسَسُ وَجْنَتَيَّ وجَبيني، أُخْرِجُ لِساني، أَتَفَحَصُ قَدَمَيَّ اللتَيْن زادَهُما الالتهاب ألَمًا، وأرى أي حالٍ حالها، فالمَشْي على الرمال والصخور أفقدني الشعور بهما.

ظللت في مكاني ذلك إلى قُبَيْل المساء، أي حتى انخفضت درجة الحرارة قليلًا، وجَنَحَت الشمسُ إلى المغيب، فتحركتُ حينها وبدأت المشي، وغير بعيدٍ عنْ مكاني الذي كُنت فيه، تَراءَ لي وادي به شجرٌ وبعضٌ من العشب الصحراوي، وعلى الفور تذكرت ذلك المكان، وهو الوادي انفجر فيه أحد إطارات مركبة الخاطفين أثناء خطفنا واقتيادنا، ونزلنا فيه لوقت قليل.

ومن المفارقات أنني وجدتُ ذات الإطار أيضًا، فوقفت عليه وتَمعنتُ فيه جيدًا، وي كأنه يسألني عن حالي وحال رفاقي! وهل استطعت الفرار أم ماذا؟ ولماذا أمشي وحيدًا تائهًا في تلك الصحراء؟ ولكنني اكتفيت بالنظر إليه، ووضعت يدي على إحدى جنباته وودعته، واستمريت في طريقي، دون أن انطق أو أفكر في شيء.

غابت الشمس، والرؤيةُ صارت تنحسر وتقّل، ولكن لا مجال لدي ولا وقت، ومن الضروري أن أُعَوّض وقتي الذي أهَدَرْته نهارًا، وإلا فإن المعاناة ستزيد أكثر وأكثر، واستمريت في المسير على ضوءِ القمر لفترة، ولكنني قررت التوقف والمبيت بعد أن غاب القمر، وأن أتحرك في الصباح الباكر، فجسدي أنهكه التعب واستحقَّ قِسطًا من الراحة، ولا أظنه سينالها!!!

بقيت على ذلك الحال تلك الليلة، وأي ليلةِ تلك، ليلةٌ ظلماء سوداء لا نورَ فيها، فحتى القمر رحل وغاب نوره، لتكون ليلةٌ مُوحِشَة شعرت فيها دون غيرها بمزيدٍ من الوحدة، وبدأ اليأس يتسلل إليَّ، وصارت قِواي تَخور، فَفي تِلك الليلة شَعرت بأنني لنْ أنجو، وأنَّ كُل ذَلك المَشْي وما تلاه من تعبٍ ما هو إلا تعجيلٌ بنهايتي، والتي ظننتها تدنوا مني في تلك الأيام.

أتذكر جيدًا بأنني اسْتَلْقَيْتُ على ظهري، وأتذكر أيضًا حَبَّات الحَصَى التي كانت تَحْتي، كأنها تحاول دَفعي للأعلى، ولا مثيل لذلك الشعور إلا ذلك الطفل الذي تريد حضنه وتقبيله ويدفعك بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ للأعلى، لا يريدك، ولا يريد قُبُلاتِك، فقط يريدك أن ترحل عنه، وتتركه بسلام، وذلك بالضبط ما أرادته حبات الحصى مني.

الجَحيمْ

انتهت تِلك الليلة كما انتهتْ سابقاتها، ذاتُ التَعَب، وذاتُ الأمل، وذاتُ الذكرى، بَلْ وذات الخوف، لا جديد فيها إلا تِلك الدقائق والساعات التي مَرَّت مِن عمري في ذلك المكان الموحش.

أقبَلَ الصباح، وقُبَيْل الشروق عاودت المسير، أبحث وأبحث، وهل لمثلي إلا البحث؟ خطوةٌ بعد خطوة ابتعد عن مكان مبيتي، وخطوةٌ بعد خطوة اجهل القادم، ولكنني أعْلَم أن لا سبيل لي إلا السير للأمام، فحتى وإن لم أنجُ، يكفيني أنني توكلت على الله، وأخذت بالأسباب، وأما التوفيق والسداد فهو بيد الله وحده ويهبه لمن ارتضى من عباده.

بَلَغْتُ الضُحى وأنا أمْشى، وحانَ الوقت لأنْ أبحث عن مكان اقضي فيه الظهيرة إلى أنْ يَحِّلَ المساء، مكانٌ يقيني حرَّ الشمس، ولا أظن بأن في تلك البقعة من الأرض ما يُلَبّي حاجتي، ويدفع عني ذلك اللهب.

لفت انتباهي تَلٌ صخري بِه حجارةٌ سوداء بركانية كبيرة،

فَخَطر ببالي أنَّ تِلك الصخور ستفي بالغرض، وسيكون لها ظلٌّ يحجب عني أشعة الشمس حتى المساء.

هذا ببساطة ما جال في داخلي حين آوَيْتُ إلى ذلك المكان، لا متاعب ولا أدنى مشاكل، وإنما قيلولة يتلوها مسير، ولكنني جَانَبْتُ الصواب هَذِهِ المَرَّة، بَل إنَّ ذَلِكَ الخَيَار أو القرار كَادَ أنْ يُنهي حياتي لولا معيّة الله وحفظه.

فما أنْ تَعَامَدَتِ الشمس تمامًا، حتى انْعَدَمَ كُل ظِلْ، وصارت الشمس فوقي تمامًا، كأنها تَصُبُّ أشعتها وَوَهَجُهَا ولَهيبُها علَيَّ صَبًا، وليس هناك ما يحول بيني وبينها، بَلْ إنَّ تِلك الصخور كانت وبالًا عليَّ، فَصارَتْ تَمْتَص أشعة الشمس القادِمة من السماء، حتى أضحت حِجارَةً مِنْ نَار، وصِرْتُ كَقِطْعَةِ لَحْمٍ على مِقْلاة، النار مِنْ كل جانب وأَتَقَلَّبُ عَلَيْها، وبالكاد يَدخل الأكسجين إلى رِئَتيَّ، وصار التنفس في حد ذاته حياةٌ ونجاة!!!

عندما وصفت تلك اللحظات – مزاجًا – بالجَحيم، كان ذلك أقل وصْفٍ يُمكن أنْ تُوصَف بِه، فَلَا يُمكن لِلكلمات ولَا الألفاظ أنْ تَصِفَ ما حَصَلَ ذَلِك اليَوْم تَحْديدًا، وتَساءَلْتُ إنْ

كانت الشمس التي تبعد عنَّا آلاف الأميال قَدْ فَعَلتْ بي ذَلك، فَكيف بالله سَيَكون عَذاب مَن خَلَقَ تِلك الشمس، وكيف سيكون الجَحيم الحقيقي، فَرَجَوْتُ الله أَنْ يُجيرنا مِنه، وأنْ يرحمنا برحمته.

استمر ذلك العذاب لِساعات، وَفَعَلْتُ كُل شَيْء ليُخَففَ عَنّي تِلك المُعاناة وشِدَّة الوَهَج، ولكن دون فائدة، فالشمس والصُخور تكفلتا بِتَعْذيبي بَلْ وتَفَنَنتا في ذلك.

وفي أَوْجِ تِلك المعاناة خَطَرَ ببالي شيْء، تَحَسَسْتُ تِلك القنينة الزُجاجية التي حملتها معي سابقًا، فأخرجتها، ونَظَرْتُ إليها جيدًا، ومِنْ ثَمَّ أَدَرْتُها في يَدَي، وبِلا مُقدمات قررتُ أن (أبول) فيها!!!

عذرًا أيها القارئ،، فليس فِيما ذَكَرت إساءَةً للأدَب، أوْ خَدْشًا للحياء، أوْ تَنْفيرًا للأنْفُسْ، ولكنني صِدقًا فَعلت ذلك، وفعلتُ ذلك مُرْغما رُغم أنْفي، فَملأتُ تلك القنينة بما نزل من (بولي) إلى مُنْتَصَفِها تَقريبًا، وأخذْت قِطْعة من القماش وصِرْتُ أُشْبِعُها بَوْلاً، وأمسحُ بها على وجهي ورَقَبَتي، ولمْ أهْتَم بالرائِحة،

فما عَاَد الأنْفُ يُمَيّز شَيئًا، بلْ ولمْ أعُدْ آبَهُ لشيءٍ إلا النَجَاة.

صِدْقًا كانت تِلك منْ أصعب اللحظات عليَّ، وصِدْقًا فَعَلْتُ فيها ما كان ضَرْبًا مِنْ اضْرُبِ الخيال يومًا ما، فَلا مَرَاهِم تَقي أشعة الشمس، ولا هواء بارد من جهاز تكييفٍ يُلَطِّفُ ذلك الحَر، إنَما بَوْلٌ أَمْسَحُهُ على وجهي، ودعاءٌ إلى الله عز وجَلْ بأنْ يُعَّجِل لي بالحَياة...

استمرت تلك المعاناة لساعات، كانَت هي الأطْوَل في حياتي، بل وهي الأقْسى والأمَر، ولا أظن بأنَّ تِلك الساعات كانت تَحوي دقائقَ وثواني ولحظات، بل أظنها كانت أيَّام وشهور وسنين، انْقَلَبَتْ فيها مقاييسُ الزَمَن وتَضارَبَت، فَعِشْتُ فيها أكْثَر مِما بَدا لي، وعانَيْتُ فيها أكثر مِما أطيق وأَقْوَى.

إنّ في أبجديات الحياة، ومن تجارب الأيام، وفي سُنن الله قبل هذا وذاك، تعلمت أن كُل شِدَّةٍ يَتلوها فَرج، وكُل عُسْرٍ سَيَتْلوه يُسْر، وما الشَدَائِدُ إلا مفاتيح الرَخَاء، لِذلك تَوَارَدَ إلى ذِهني أنَّ تِلك المِحْنَة، وذلك اليَوم، وتِلك الساعات تَحديدًا، سَيَتْلوها فَرَجٌ لا يُضاهيه فَرَج، وسَيُعَوضُني الله عَنْ كُل ذَلك الأَلم أَمَلًا

وَخَيْر، وما ذَلك على الله بِعَزيز.

وبالفعل، بَدَأَ لَهيب الشمس وَوَهَجُهَا يَقِّلُ ويَقِّل، وصار لِتِلك الصُخور ضِل، وبَدَأْتُ انْتَعِشُ قَليلًا، فَقَدْ مَرَّت ذُرْوَةُ تِلْك المعاناة، وصار الهَوَاءُ يَنْسابُ إلى رِئَتَيَّ دُون مَشَقَّةٍ، ولكنني لَمْ أَشَأ التحرك من مكاني حتى يبرد الجو أكثر وأكثر.

❊❊❊

الصَدْمَة

وبِتَحَسُّنِ الجَو حيث صار بإمكاني المَشْي دون عَنَاء، هَمَمْتُ بالوقوف من مكاني، وأصابني شَيْءٌ مِنَ الدوار لا أعَلَمُ سَبَبَهُ، ولكن ما حَصَل في تِلك الظهيرة يستوجب أكثر مِنَ الدُوَار حَتْمًا، فَتَرَنَحْتُ وتَمَايَلْتُ حتى كِدْتُ اسْقُطْ، ولكنني تَمَالَكْتُ نَفسي، واسْتَعَدْتُ تَوازني مَجددًا.

وقَفتُ مُنْتَصِبًا منْ جَديد بَعد أنْ تَجَاوزت تلك اللحَظات العَصيبة، ولم أَزْدَدْ بِفَضْلِ الله إلا عَزيمةً وقُوة، وأَدَرْتُ رَأْسي في كُل اتجاه، انْظُرُ لِذَلِكَ الأُفُق الشاسِع نَظْرَة المُتَأمل المُنْتَشي، لَمْ أكُنْ أَعْلَم سِرَّ ذَلك الشُعور، ولكِنْ لَعَلَها فَرْحَة التَغَلُّب عَلى الأوْقاتِ العَصيبة، فَحَتْمًا تجاوز تلك الأوقات يعقبه مثل ذلك الشعور فرحًا ونشوة.

نزلت من ذَلِك التَلْ إلى غَيْر رَجْعة، وَرَجَعْتُ إلى دَرْبي وَطَريقي أَقْوى منْ ذي قَبل، فَسَلَكْتُ الوادي مِنَ المُنْتَصَف مُسْرَعًا قَبل المَغيب ولكن لِلَحْظة....

بَدأْتُ اسمع صوتًا بعيدًا يَدنو مِنِّي، لمْ أُعْرِف اتجاهَهُ ولا مَصدره، ولا ماهِيَّتُه، ولكنني أسرعتُ مهرولًا لأَخْرُج منْ ذلك الوادي وأبْحث عنْ مَصدر ذَلك الصَوت، وفَجْأة...

مَلأ المكان تكبيرٌ ، حتى ظننت أنَّ الأرْضّ تَهْتَز، والجِبَال تَتَمَايل، وكُل شيءٍ لمْ يَعُد في مكانه، وإذا بِهِم مَجموعة مِنَ المُسلحين لَمْ يَهُمُني مَنْ هُم آنذاك، أو منْ أَيْنَ أَتو؟ ولكن ما هَمَّني في تِلك اللحظة أنَّ أَحَدَهُم وَجَدَني، وَدَعَوْتُ الله أَلا يكون فَصْلٌ جَديد مِنْ فصولِ معاناتي.

وبالفعل اقترب مني أولئك المسلحون، هُمْ يُكَبّرون ويُهَلِّلون، وأنَا أُهَرْوِلُ نَحوهم مُسرعًا بما تَبَقَّى لَدَي منْ طاقة، لأني خَشيتُ أنْ يكون كل ذلك حُلمًا أو خيال، فيتلو ذَلك الحُلم يَقَظة، وذَلك الخَيَال حَقيقة مُؤْلِمَة.

تَصَلَّبَتْ قَدَمَاي فَجْأة، وَتَوَقَفْتُ عَنِ الهَرْوَلة والحَرَكَة، وَبَدَا لِي أنَّ كل شيء تَوَقَفْ عَن الحَرَكَة أيضًا، فَلَقَدْ أَبْصَرَتْ عَيْنِيَّ مَعَ القَادمين بَعْضًا مِنْ أَقَاربي وَأَصْدقائي وَأَحِبَتي وَمَعَهُم مَنْ لا أَعْرِفُهُ مُطلقًا، وَلَمْ أَعْلَمْ ما أَصَابني حينها، ولَكِن حَتْمًا أنها الصَدمة.

دُموع الفَرَح

حتمًا كَما كانت تِلك اللحظات التي عانَيْتُها صَعبةً على ذَلك التَلْ الصخري، فإنَّ لحظات العُثور عَلَيَّ هي الأَجْمَل، والأَسْعَدْ في حياتي، وبِلا مُنازع.

فَكوني مَخْطوفًا، أسيرًا، جريحًا، عَطِشًا، جائعًا، خائفًا، تائِهًا، لوحدي في تِلك الصحراء الشاسعة، وفجأةً أَجِدُ أوْ يَجِدُني أَحِبَتي وَخِلَّاني، فَحتمًا هي مُنْتَهى السعادة، وذُرْوَةُ الفَرَح، وأَكْبَرُ هَدية لي من السماء.

اختلطت المشاعر بين دَمْعٍ مِنَ العيون، وفرحًا يَشْرَحُ الصُدور، وتهليل وتكبير هَزَّ كل شيء، لِدرجة أنني لَمْ أَعُدْ أَقْوى على الوقوف، فَجَثَوْتُ على رُكْبَتيَّ، وَغَمَرْتُ وجْهي بين كَفّيَّ، وصِرت أبكي بُكاء الأطفال، وصُراخي مَلَأَ الأرْجاء، وأنا أَهْتَزُّ وأَتَمايل للأمَام والخَلف، ولم يستطع أحدٌ مِن الحاضرين أن يَفْتَكَّ وَجْهي مِنْ يَدَيَّ، وصَار الجَميع يَحْضُنُني، وأنا على ذلك الحال.

لا أَعْلَم كَمْ بَقيت على ذلك الحال، وكم اسْتَمَرَّتْ تِلك (الهيستيريا) من البُكاء والصُراخ والنحيب، لِأُنْزِل بَعد ذلك يَديَّ والدُموع تَتَقاطَرْ مِنْ وجْهي لا مِنْ عَيْنيَّ فَقَطْ، بَعْد أَنْ غَطَّت تِلك الدُموع وجهي بأكمله.

ووقفت بعد أن ساعدوني على ذلك، وصار الجميع يَحْضُنُني، ويَحْمَدُ الله عَلَى سَلَامَتي، وأنا بَيْنَ الذهول والشرود والفرح، بل وامتزجت جميع المشاعر حتى المُتَضَاد مِنها، فَتلك اللحظة لا تتكرر كثيرًا، وأكاد أجزُم بأنها لنْ تَتَكَرر ما حييت، لِذلك لا أظن بأن هناك ما أُميّزُ به بين شعور وآخر.

هدأت قليلًا، وبدأت استوعب ما حصل، ولا شيء أراحني إلا الشعور بأن تلك المحنة انتهت ها هُنا، وقدَّر الله لي النَجَاة، بل وأسرع مما ظَنَنْتُ وَتَوَقَعت، فاسترجعت تلك المعاناة أمامي على عجل من لحظة اختطافنا وإلى غاية العثور علي، حتى أنني لا أذكر ما قيل لي في ذلك الوقت، ولا أعلم ماذا قُلت، أو بماذا رَدَدْتُ عليهم، فقد كنت معهم حاضرًا بجسدي دون ذهني.

استدركت نفسي، وسألت عن رفاقي الأسْرى، هَلْ تَمَّ العُثور

عليهم وإيجادهم أم لا؟

فأجابوني بأنهم قد عثروا عليهم في مكانهم الذي تركتهم فيه، ولم يُمْسِسْهُم – بفضل الله – ضُرٌّ أَوْ سُوء، فَحَمدت الله أكثر وأكثر، بأنْ أَنْجَانَا جميعًا مِنْ أَولئك القَتَلَة المجرمين، وَكَتَبَ لنَا السَلَامَة رُغم قَساوَةِ تِلك التَجْربة.

تَذَكَرْتُ عَطَشي الذي (أنْسَانِيه) فَرَحِي بِالنجاة، فَطَلَبْتُ مِنْهُمْ سِقَايَتي وَلَكِنَّهُم رَفَضوا وأَبَو، فَهُم يعلمون بأنني لم أشرب الماء منذ مدة، وشُربي للماء بعد ذلك العطش قد يكلفني حياتي، فاكتفوا بِتَرْطِيب شَفَتيَّ بِقَلِيلٍ مِن الماء.

أتذكَّر جَيدًا نَظَرات أولئك الرجال لي، أَتَذَكَّر فَرَحهم وسُرورهم، أتذكَّر أَنَّهُم كانوا يَتَطايرون سعادةً، وبأنَّ الأرض لم تسعهم من شدَّة الفرح، ووسط ذلك أتذكَّر سؤالي لهم:

-هل قتل منكم أحد في سبيل تحريرنا؟

تغيَّرت وُجُوه بعضهم، وأَدار بعضهم الآخر ظُهورهُم لي فَوْرَ سؤالي لهم، فِيما رَدَّ عَلَيَّ آخرون:

-لا خسائر في الأرواح، فقط بعض الجرحى، فلا تشغل

نفسك الآن، واسترح لنذهب بك إلى المستشفى، حتى تتلقى الإسعافات الأولية.

لم تُعجبني الردود، ولا تعابير الوجوه، وتوقعت أنهم يُخْفون عني شيئًا ما، ولكن لا وقت للأخذِ والرَدْ وكثرة السؤال، فما أجهله الآن سأعرفه لاحقًا.

ركبْتُ إلى إحْدى المركبات، وبالكادِ استطعت، فَمِنْ شدَّة الألم ما عُدْتُ أقْوَى عَلَى الوقوف، فَحَمَلَني بَعْضُهُم إلى أنْ وَضَعوني على كرسي إحدى المركبات، ورَكِبَ الجميع سياراتهم واتجهوا بي إلى أقرب قرية.

في الطريق لم يفارقني الذهول، ولم أستوعب أنَّ ذلك الكابوس انتهى، وانتهت معه آلام ومعاناة، وأنني الآن حُرٌّ طليق بل وفي طريقي لأهلي وعائلتي، فَبِرَبّي ذاكَ مَكْمَنُ الذهول والتَعجُب.

من رافقوني في تلك المركبة، كانوا يريدون أن يسمعوا مني ما حصل، وكيف حصل؟ ولكن ما كُنت عَلَيْهِ مِنْ تَعَبٍ وإرهاق حَالَ دون ذلك، وصاروا يَسْردون لي كُلُّ ما جَادَتْ بِه قَريحَتُهُم،

وَوَسِعَهُ الزَمن، منْ قِتالهم لِتلك العصابات، إلى أن تقفوا أَثَرَنا ووصلوا إلينا.

وبعد أن قطعنا لمسافة ليست بالقليلة، وصلوا بي إلى إحدى القرى، حيث كان رفاقي - في الأسر - هُناك، فالتقينا وتعانقنا بشدة حتى كادت أن تُكسر اضلُعنا من شدة العِناق، وحمدنا الله الذي جمعنا، وكَتَبَ لنا النجاة واللقاء مجددًا.

وتوجهوا بنا إلى مشفى بإحدى البلدات القريبة، حيث كانت جُموعٌ مِنَ الأهالي في انتظارِنا، ولكننا لـمْ نَقْـوَ على المـصافحة أو الـسلام، فأدْخَلونـا مبـاشرةً إلى أقـسام المَـشْفى، وبَـدَأَتْ الفُحوصات والتَحاليل اللازِمَة للاطْمِئْنَان على صِحَتنا، والكُل لا يَدّخِرُ جُهْدًا في تقديم يَدِ العون والمساعدة.

استمر ذلك الحال، وأجسادنا بين عيّناتٍ تُسْحَبْ، ومحاليل تُحْقَنْ، وغُرَف المَشْفى التي تعج بالداخلين والخارجين، فقد كُنا ابطال قصةٍ أشبه بالخيال في نَظَرِ بعضهم، وتحريرنا من الخاطفين بقوة السلاح كان فَخْرًا للجميع.

وبين داخلٍ وخارج، وبين طبيبٍ وممرض، وبين قريبٍ

وبعيد، لَمَحْتُ شخصًا لا أعرفه يقتربُ نحونا، يَشُّق طريقه بين الجموع، كان كغيره يريد الاطمئنان علينا، إلى أن دَنا مني وقال:

((عظم الله أجركم في رفاقكم))!!!!

أذكر أنني عند سماع تِلك الجُملة صُعقت، وتساءلت:

ماذا يقول؟ أو بماذا يهذي؟

بل أنني احترت في أمره وخَمَنْت:

لعله مخطئ، أو لعل الأمر التبس عليه، أو لعله صادقٌ، يعي ما يقول!!!

وحتى ينجلي شك السؤال بيقين الإجابة، سألته بشيء من التهجم – وقد أُعْذَرُ في ذلك – أي رفاقٍ تقصد؟

فسكت ولم ينطق بحرف، وبدا وجهه كمن أتى ذنبًا لا يُغْتَفَر، والدَمُ حُبس في وجهه من شدة الحَرَج.

ولمحت أيضًا بعض الحاضرين يهمسون له بأن يصمت، فأعدت عليه السؤال:

أي رفاق تقصد؟

فصمت مجددًا، وما كان مني إلا أن أعيد السؤال، ولكن

هذه المرة بوتيرة أعنف من سابقاتها:

من اللي مات؟

وبعد هذا السؤال لم يعد هنالك مجال لأن يصمت أحد، فقد زاد انفعالي وبدأت اشتاط غضبًا، فما كان من أحدهم إلا أن يضمني إليه بقوة، وقال لي:

عظم الله أجرك في عبد الله ابن عمك، واحميد ابن خالتك، ومعهم 8 آخرين قتلوا في الاشتباكات مع الخاطفين.

قاطَعْتُه:

هل تمزح؟

وأنا على يقين بأن المُقام ليس مُقام مزحٍ وتهكم، ولكنها الصدمة، فانهرت بالبكاء مجددًا، وعلى الصياح والجَلَبَة تلك الغرفة، أبكي واتساءل، كيف كان ذلك؟ ومن قتلهم؟ وأين قتلوا؟ وكيف تمكن المجرمون منهم؟

أتساءل ولا أحد يجيب، وصار كل من في تلك الغرفة يبكي ويبكي، في منظرٍ من مناظر الحزن الشديد، والأسى الذي أفسد علينا الفرح بتحريرنا.

في حجرة المستشفى سَقَطْتُ على ظهري من شدة البكاء، وأصابني ما أصابني، وصِرْتُ أنظر إلى سقف تلك الحجرة، وقد غُرِسَ في يدي أنبوبٌ بلاستيكي يُدخل المحاليل العلاجية إلى جسدي الوَهِنْ، قطرةً بِقطرة، وما عدت أقوى على شيء إلا النظر إلى الأعلى واسترجاع الذكريات واستيعاب ما حصل.

وصِرت ألوم نفسي وأتساءل:

هل أنا السبب في كُل ذلك؟ هل بسببنا قُتل أولئك الرجال؟ وهل نُلام على كل ذلك؟ بل هل نستحق كل تلك التضحيات العِظام!!!

فبالله أي فرح سنفرحه، وعشرة رجال قتلوا وأُريقَتْ دماؤهم في سبيل تحريرنا.

كيف نفرح؟ وفيهم ابن العم (عبد الله) صاحب الضحكة والابتسامة التي لا تفارقه أبدًا؟

كيف نفرح؟ وفيهم ابن الخالة (احميد) ذلك المهندس الطموح المُهذب صاحب القلب النقي؟

كيف نفرح؟ وفيهم ثمانية رجال لا نعرف أسماؤهم حتى؟

بل ولا تربطنا بهم أي صلة إلا ذلك الوطن الذي نتقاسمه، فقُتِلوا وضحو بأغلى ما يملكون في سبيل أن نعود إلى أهلنا وذوينا.

كيف نفرح؟ وقد رحلوا عن أهلهم إلى غير رجعة، وتركوا خلفهم قلوبًا مُلِئَت حزنًا، وانفطرت شوقًا لهم.

كيف نفرح؟ ودماؤهم الزكية لم تجف بعد، وفرشوا لنا طريق العودة إلى ديارنا دماءً وأشلاء.

كيف نفرح؟ وكيف نفرح؟ وكيف نفرح؟ بل ولما نفرح؟ فهل للفرح طعم!!!

***

العودة إلى الديار

غادرنا المستشفى وعـدنا إلى مدينـة سـبها، وكان الاسـتقبال هناك أقل ما يمكن أن يوصـف بـه بأنـه حاشـد، فـالكل جـاء للسلام والاطمئنان علينا.

ولا تسأل عن حالي حين قابلت أبناء الأبطال وإخوانهم، بـل ولا تسأل عن المشاعر، فالنظر إلى أعينهم قتلـني خجـلًا، فـأن يكون أولئك الفِتْيَةُ أيْتامًا لأقِفَ أنا في ذلك المُقام، فهـذا والله ما لا طاقة لي بِه.

بقينا لساعات والناس تأتينا أفواجًا من كل حدبٍ وصوب إلى وقت متأخر من الليـل، ومـن ثـم افترقـت أنـا ورفـاقي مجـددًا، ولكـن هذه المرة كل شخص منّا سـيعود إلى بيتـه وعائلتـه لأول مرة بعد رحلة الموت تلك.

وصـلت إلى منزلنـا، حيـث كانـت أمي، وزوجـتي، وفـلذات كبدي، حينها هان ذاك التعب، وهانت تلك المعانـاة، وهـان كل شيء عانيته في رحلتي تلك، بعد أن جمعني الله بأحبتي.

الأم حيثُ الملاذ والأمان، الزوجة حيثُ الوفاء والإخلاص، الأبناء أولئك الزهر والعطر الفوَّاح الذي ينشر عَبَقَهُ في دُنياي، فحَمَدْتُ الله أني بينهم، وحَمَدْتُ الله أنهم في حضني جميعًا.

احتضنتهم جميعًا، وأكاد أبكي بدل الدمع دم، كيف لا؟ وهناك من دفع دمه وعُمره وحياته لأجلنا، ولن يعود لأبنائه وأهله أبدًا.

يالا تلك اللحظة، ويالا ذلك الأسى، بكاء وصُراخ، شهيق وعبرات، دموع ودموع، وحزن ملأ المكان، وأنا في المنتصف لا أقوى على شيء، كمن أدركه إعصار من كل جانب.

والله لا كلام يصف تلك اللحظات، ولا بلاغة تُعَبِّر عن ذلك الموقف، ولكن ما أنا جازم به، أنّ حُزني بِفَقْد أولئك الرجال، أكبر وأعظم من فرحتي بعودتي لأهلي.

❊❊❊

النهاية

انتهت تلك الحكاية، وأُسْدِلَ الستار عن فصولها، وكنت فيها بالفعل في ضيافة الموت، ذلك الموت الذي كان حولي في كل وقت وحين، في كل يوم، في كل ساعة، بل وفي كل لحظة من لحظات اختطافنا وأسرنا.

انتهت تلك الحكاية، ومن اليوم، لا خاطفين يشدّون وثاقنا، ولا مجرمين يُقَيّدون حريتنا، ولا من يَبْتَزُ أهلنا إمّا بالمال أو بالقتل.

انتهت تلك الحكاية، وطُوِيَ معها الخوف، والألم، والمعاناة، وكل ما هو سيء.

انتهت تلك الحكاية، وبعض فصولها لم تُسرد، وتضحيات أبطالها لم تُرْوَ، ولم نذكر إلا القليل، فحتمًا هُنالك مالم يُكتب، ولم تستحضره الذاكرة.

نعم لقد انتهت الحكاية..

***

الخاتمة

إلى كل أمٍ فَقَدَتْ.

إلى كل زوجةٍ فَقَدَتْ.

إلى كل ابنٍ فَقَدْ.

إلى كل أبٍ، وأخٍ، وأخت.

إليكم جميعًا أكتب:

حتى وإن لم يذكر أبطالكم أحد، حتى وإن صَغُرَتْ عليكم الدنيا، حتى وإن ذُقْتُم مرارة الفقد دون غيركم، لا تحزنوا، ولا تَهِنوا، وحسبكم، وحسبنا، أن تلك القناديل المضيئة حيّة عند ربها ولم تمت.

إلى من ذكرت:

لم أمسك بقلمي وأكتب، إلا لتوثيق الجزء اليسير من المعاناة التي عاشها المخطوفون، وحتى يعلم القاصي والداني أيُّ تضحية قدَّمها أبطالكم، وأيُّ فداءٍ افتدوا به إخوانهم، وأيُّ ايثار تجلّى

في تلك التضحيات.

لَـكُمْ أن تفخروا، ولَـكُمْ أن ترفعوا الرؤوس عاليًا، ولَـكُمْ أن تتركوا الحزن عنكم، فَحين سَتُذْكَرُ الشجاعة والإيثار سيُذكر أبطالكم، لأنهم صاروا مدْعاةً لذلك.

إلى عائلات الأبطال، لعلّ أمَ بطل أو والده لن يتمكن من قراءة هذه الصفحات، فحسبكم أن تقرأوا عليهم هذه الأسطر والكلمات، لعلّ الله أن يُهَوِّنَ بها عليهم المُصاب، وليعلموا بأن تضحيات أبنائهم لم ولن تذهب سُدًا.

فكل المواساة لكم، ولكم مني كل السلام...

الكاتب

طرابلس

2019-3-16

الفهرس

بداية الرحلة 9
مرحلةالأسر 13
مرحلة الاقتياد 17
مرحلة الاستجواب 20
الاحتجاز و الابتزاز 27
غَدْرُ الضِّباع..... 35
اقتفاء أثرنا 44
أم الأرانب 48
مكان احتجازنا 50
الهجوم والاشتباك 52
الانسحاب..... 57
إلى غير رجعة..... 59
دُونَ جَدْوَى..... 61
أنا والموت 64
القَدّاحَة..... 66
شَيْءٌ مِن الذِكريات 69
القمر 72
الشِهاب 75

النار 77
الماء 80
أَرْجُل الغَزَالْ..... 85
الجَحيمْ 90
الصَدْمَة..... 95
دُموع الفَرَح..... 97
العودة إلى الديار.....106
النهاية 108
الخاتمة.....109
الفهرس 111

***